الفصل الخامس

الجهاد في سبيل الله

كان الرسول (ص)، في الدور المكي، يدافع عن مبادئه ودعوته بالإقناع، والحجة والآيات المنزلة، فجعل منها سبيل جهاده: «فلا تطع الكافرين، وجاهدهم به» (أي بالقرآن الكريم. أما بعد الهجرة، أي في الدور المدني، فقد أذن للرسول، وللمسلمين بالقتال، حين نزل قوله تعالى: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله»

وكان من دوافع القتال في الإسلام الدفاع عن النفس: «وقاتلوا في سبيل الله، الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين». وحرب الدفاع عن النفس هي الحرب العادلة، التي يراد منها منع الظلم والعدوان.

كما كان منها حماية حرية نشر الدعوة، وليس المقصود بذلك الحرب لنشر الإسلام، وإنما تأمين حرية الدعوة إليه. أما الحرب لنشره بالقوة فيمنعها قوله تعالى: «لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي»، فهدف الحرب في الإسلام هو تحقيق حماية حرية العقيدة، وتأمين حرية نشرها بين الناس، وكذلك المحافظة على وحدة الأمة،

والقضاء على الفتنة : فقد أجاز الإسلام قتال الفئة المسلمة ، الخارجة على النظام العام ، فقال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي، حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت، فأصلحوا بينهما بالعدل. وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون أخوة، فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون ».

وهكذا نرى أن الحرب فى الإسلام إنما هى حرب شريفة دفاعية إنسانية ، تقوم على رد العدوان ، ومنع الظلم ، وحماية حرية الدعوة ، والقضاء على الفتنة ، وتوطيد اركان السلام . ومن أجل ذلك تطلب الإسلام من أتباعه إعداد القوة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ». ودعا الإسلام إلى السلام ، والبعد عن كل عدوان، فقال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ». كما قال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » :

وأوضح الإسلام موقف المسلمين من غيرهم ، وأن لا عدوان إلا على الظالمين » فقال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين . ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم، أن تولوهم ، ومن يتولهم، فأولئك هم الظالمون»

لقد كانت الحرب في الإسلام دفاعية : فلم يقاتل رسول الله (ص) احداً إلا مضطراً لقتاله ، وجميع غزواته (ص) كانت لرد اعتداء ، أو

لإحباط نية اعتداء، ولم يجد (ص) من عدو ميلا إلى السلام، إلا بادر إلى ذلك. كما أنها كانت حرباً لتوطيد السلام: فقد كان الرسول (ص) يجيب كل عدو يدعوه إلى السلم: فحين طلب مشركو مكة السلام، منحهم إياه، فحالفهم، وسالمهم، في صلح الحديبية. وحين طلب يهود يثرب السلام، أجابهم إليه. وكذلك فعل مع كل قبيلة تريد محالفته وإقامة حالة السلم معه. فالسلام أمر يدعو الإسلام إليه، ويعتبره أصلا، بينما يعتبر الحرب حالة استثنائيه، لظروف تقتضيها. ويجدر بنا أن نلاحظ ان الإسلام يدعو إلى السلام، لا إلى الاستسلام. لذلك كانت الحرب في الإسلام حرباً إنسانية شريفة، تقوم على احترام قواعد الشرف، فلا تتعرض للأبرياء: فإن الرسول (ص) لم يتعرض. في غزواته، لغير المقاتلين. فعندما خان بنو قريظة عهودهم، وعرضوا المسلمين للفناء، في غزوة الخندق، كان جزاؤهم القتل: فقتل الرجال، دون الأطفال والنساء. والمرأة الوحيدة التى قتلت منهم، هي التى قتلت أحد المسلمين، بإلقاء الرحى عليه، وكان قتلها عقاباً لها على جريمتها. وعندما خرج المسلمون في غزوة مؤته، أوصاهم الرسول (ص) بإلا يقتلوا النساء والأطفال والمكفوفين، ولا يهدموا المنازل، ولا يقطعوا الأشجار، فالقاعدة الإسلامية ألا يؤخذ البريء بجريرة المسيء «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

ومن قواعد الشرف في الحرب أن يعامل الأسرى والرهائن معاملة إنسانية. فقد أوصى الرسول (ص) أصحابه خيراً بأسرى بدر، فقال:

« استوصوا بالأسارى خيرا »: فقبل الفداء من بعضهم، وأطلق سراح البعض، دون مقابل، وعلم بعضهم أطفال المسلمين القراءة والكتابة، فأطلق سراحهم. أما الأسيران اللذان قتلا من هؤلاء الأسرى، بأمر من الرسول (ص)، فقتلهما لم يكن لأسرهما، وإنما كان لأنهما أجرما في حق المسلمين، وعذبا المستضعفين، فنالا جزاء ما ارتكبا من جرائر وآثام. أما الرهائن، فما عرف في تاريخ المسلمين اعتداء على أحد منهم.

ومن قواعد الحرب الإنسانية العناية بجرحى العدو، وجثث قتلاه: فقد وقف المسلمون من جرحى المشركين، في معركة بدر، كموقفهم من جرحاهم: بتمريضهم، والعناية بهم، كما دفنوا جثث شهدائهم. بينما كان موقف عدوهم، في معركة أحد، موقفا مضاداً، حيث مثل المشركون بجثث الشهداء من المسلمين.

والحرب في الإسلام حرب عقيدة، لاتكون لأغراض شخصية، أو عنصرية، لأنها تستهدف تحقيق رسالة، فهي فوق الأشخاص والعنصريات، يحارب المرء فيها قومه، إن رأى فيهم انحرافاً عن المبدأ: فالرسول (ص) حارب قريشا، وهو منها، واعتبر جميع الذين اعتنقوا الإسلام إخوة، لاتفاضل بينهم إلا بالتقوى « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ».

والحرب في الإسلام لم تكن لأغراض مادية، وحياة الرسول (ص) خير مثال على ذلك، فكان يأخذ حصته من الغنائم والفيء، ويردها على مصالح المسلمين: ويكفي في هذا المقام قول عائشة، أم المؤمنين: «ماشبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين، حتى قبض رسول الله (ص)»

وتقول ايضا : «توفي رسول الله (ص) ، وليس عنـدي شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير في رف لى . وتوفي ، ودرعه مرهونة ، عنـد يهودي، في ثلاثين صاعا من شعير » . وتقول « كنا ، آل محمد ، نمكث شهرا ، ما نستوقد بنار ، ن هوإلا التمر والماء » .

ومما هو جدير بالذكر ، في هذا المقام، أن بعض المستشرقين أرادوا الطعن في الإسلام، فقالوا إنه انتشر بالقوة والسيف، ولم يفرقوا في ذلك بين الإسـلام ، كعقيدة ، لاتجيز أن يكره أحـد على اعتناقها ، وبـين الإسلام ، كنظام سياسي ، وحدود سياسية ، اتسعت بالقوة ، وأخضعت لحكمها ـ لا لعقيدتها ـ دولا وشعوباً عديدة ، مستهدفة تحطيم أنظمـة سياسية ، تقوم على الظلم ، وتحول دون حرية نشر العقيدة .

ويمكن الرد على من يقولون إن الإسـلام انتشر بالسـيف ، بأن استعمال السيف، على كل حال، لم يكن سوى ضرورة في كفاح المسلمين، داخل الجزيرة العربية ، ضد المشركين، الذين اعتدوا عليهم، وآذوهم، وصادروا أموالهم . ذلك لأن النبي (ص) ظل يبذل قصارى جهـده ليسالم المشركين، فلما أبوا إلا الاعتداء على المسلمين ، اضطر ، آخر الأمر أن يجابه القوة بالقوة ، وأن يذود عن الإسلام بنفس الوسيلة . لأنه لو رضي بالعجز ، دون مقاومتهم ، لما عبد الله على الأرض ، ولقضى على المسلمين!. ولنتأمل بعد ذلك ، كيف عامل الرسول (ص) هؤلاء القوم، لما فتح مكة. فقد أسبغ على أهلها عفوه ، ونسي عدوانهم. وعلى الرغم من هذا . فلم يبلغ عدد القتلى، في معارك النبي، أكثر من سبعين، في غزوة بدر، واحد عشر، في أحد ، وثلاثة، في الأحزاب، وحوالي العشرة، في الفتح. وهذا كله لم يجاوز المائة في معارك الجزيرة كلها . أين هـذا من إبادة

الصليبيين للمسلمين ، في الحملات الصليبية العديدة ؟ وفي الأندلس ، في العصور الوسطى ؟ ومن إبادة الفرنسيين الجزائريين ، ومن حمامات الدم العربية التي أراقتها وتريقها ، إسرائيل ، في عصرنا الحاضر ؟ وأكبر دليل على ان الأسلام - دين الفطرة - يشق طريقه إلى القلوب ، أنه انتشر في جهات ، لم يرفع فيها المسلمون سيفا ، ولم يقيموا دولة : فهذه اندونيسيا ، وجهات غرب أفريقيا انتشر فيها الإسلام ، منذ عشرة قرون ، عن طريق التجار المسلمين ، الذين كانوا يرتادون تلك الجهات . فيجذبون أهلها إلى دينهم ، بأيمانهم الصادق ، ومعاملتهم الطيبة ، واليوم فى عصر الحرية ، يجتذب الإسلام عدداً كبيرا من المسيحيين المثقفين من جميع الدول ، بشكل لم يسبق له مثيل . وإن المتصفح للمجلات الإسلامية ليطرب إذ يرى الإسلام يجذب إلى رحابه تلك الصفوة من المسيحيين. وإن إسلام مثل هؤلاء ، في هذا العصر ، الذي نعيش فيه ، هو أكبر دليل على ملاءمته لطبيعة البشر .

ولم ينشأ ، في عهد النبي (ص) ، جيش منظم ، أو ديوان خاص للجند ، وإنما كان جميع الرجال من المسلمين جنوداً ، كتب عليهم القتال ، في سبيل الدفاع عن أنفسهم ، وحماية دينهم . وكان النبي (ص) نفسه القائد الأعلى لقوات المسلمين ، وقد قاد الغزوات ، كما حدث في بدر ، وأحد ، والخندق ، وفتح مكة ، وحنين وقد بلغت غزواته ستا وعشرين (أو ثمان وعشرين) غزوة . أما السرايا ، التي كان يرسلها ، ويؤمر عليها من أصحابه ، فقد بلغت خمسا وثلاثين .

وكان لصفات الرسول (ص) العسكرية، وعبقريته الحربية، فضل كبير في نجاحه، كقائد عسكري. وقد ذكر بعض العسكريين تلك المزايا، التي يندر أن تجتمع لقائد واحد. ومن ذلك ما كتبه (للواء الركن محمود شيت خطاب)، في كتابه «الرسول القائد»، من أن الرسول (ص) جمع الصفات المثالية للقائد الممتاز وهي: القدرة على إعطاء القرار السريع الصحيح، والشجاعة الشخصية، والإرادة القوية الثابتة، وتحمل المسؤولية، بلا تردد، ومعرفة مبادىء الحرب، والنفسية، التي لا تتبدل، في حالتي النصر والاندحار، وسبق النظر، ومعرفة نفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم، وثقة قطعاته به، وثقته بقطعاته، والمحبة المتبادلة بينه وبين قواته، والشخصية القوية النافذة، والقابلية البدنية، والماضي الناصع المجيد.

وقد طبق الرسول (ص) أساليب جديدة مبتكرة، واستخدم أسلحة جديدة في القتال، هذا إلى جانب تواضعه مع جنده: فكان يعمل معهم كواحد منهم، يحمل الحجارة، وينقل التراب، ويحفر الخندق، ويكون تارة مع المشاة، وأخرى مع الراكبين، ولم يستغن عن مشورة أصحابه، وكثيراً ما كان ينزل عند رأيهم.

وكانت الروح المعنوية، عند المسلمين، في هذه الفترة من صدر الإسلام، عالية جداً، بعد أن باعوا أنفسهم لله. يقاتلون ويقتلون في سبيله «ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل، أو يغلب، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً». وقد أعطاهم القرآن درساً في الصبر على الأعداء بقوله:

«ولا تهنوا في ابتغاء القوم أن تكونوا تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون».
وقد اوضح الإسلام وجوب الثبات في القتال، وعدم الفرار من المعركة، فقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره، إلا متحرفاً لقتال او متحيزاً إلى فئة، فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المصير».

وقد حارب الإسلام عوامل الضعف والخور في نفوس المسلمين، وانتزع منها حب الدنيا، ودفعها للجهاد في سبيل الله، وجعل الجهاد عند المؤمنين حقاً، فوق حب الأهل، والولد، والعشيرة، والمال، فقال تعالى: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين»

واشعر القرآن المسلمين بقوتهم، في حال إيمانهم وصبرهم، ووعدهم النصر: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، بإذن الله، والله مع الصابرين.» وذلك بصورة خاصة في المعارك الأولى للإسلام، يوم كان المسلمون في أعداد قليلة، بالنسبة لعدوهم. وصفوة القول ان الإسلام فرض على أتباعه الجهاد في سبيل الله.

وتعتبر حادثة هجرة المسلمين، من مكة إلى يثرب عملية حشد عسكري للجنود في قاعدة أمينة، تمت بهجرة القائد العام، محمد (ص)، واجتماعه هناك بقوته. وكان المسجد الذي بناه الرسول والمسلمون

في المدينة أول ثكنة للجند . وجاءت عملية المؤاخاة ، فكانت عملية صهر القوى العسكرية ، فغدت تلك القوة جسما واحدا، وبدا واحدة ، تعمل لهدف واحد ، تحت قيادة واحدة .

ثم كانت المعاهدة « الصحيفة » التي عقدها الرسول (ص) مع اليهود والمشركين من أهل يثرب، عملا عسكرياً رائعاً ، إلى جانب فوائدها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فاتضحت من تلك المعاهدة بوادر تنظيم عسكري ، يقوم على اعتراف الجميع بقيادة محمد (ص) لجميع سكان المدينة : مسلمين وغير مسلمين، وضمنت تلك المعاهدة اشتراك الجميع في الدفاع عن المدينة ، والاشتراك في تكاليف هذا الدفاع ، وحرمت المعاهدة حماية المشركين من قريش ، للقضاء على عمليات التجسس والتآمر . كل ذلك يتم في وقت أوشك القتال فيه أن يقع ، فكانت تلك المعاهدة من أروع الأعمال في التنظيم الحربي ، الذي يسبق المعركة ، فتم للقائد الرسول بذلك : قوة من المسلمين، كجسد واحد، بعقيدة واحدة . وقاعدة عسكرية قوية ، وتحالف مع الجوار ، يضمن العون والتأييد .

التفت الرسول (ص)، بعد هذه الأعمال التنظيمية ، التي لا بد منها قبل خوض المعركة مع الخصم العنيد القوي ، إلى تنظيم الدوريات والسرايا : وكان يهدف منها إلى إشعار اليهود والمشركين بقوة المسلمين وتحقيق أهداف عسكرية أخرى ، بالنسبة إلى قريش ، لتأمين حرية انتشار الدعوة . وكانت فكرة التعرض لقوافل قريش التجارية من

أول الأهداف، التي أرادها القائد الرسول (ص)، لأن تلك القوافل تعتبر بالنسبة لقريش، العصب الحساس، ومورد الرزق، وكان الرسول يهدد بأعماله هذه طرق التجارة لقريش، وبالتالي مكانة مكة الاقتصادية، مما كان له أكبر الأثر في الضغط على قريش، وإخضاعها، وإبعادها من طريق حرية انتشار الإسلام، والرد على عدوانها، وأعمال الظلم، التي ارتكبتها ضد المسلمين.

وكانت تلك الدوريات والسرايا الأولى عمليات استطلاع، تعرف المسلمون خلالها على المنطقة المحيطة بالمدينة، وطرقها، وقبائلها مما سيحتاجون إليه في مستقبلهم القريب. واستخدام الرسول (ص) في هذه الفترة أسلوب الرسائل المكتومة، للمحافظة على الأسرار العسكرية، والكتمان من أهم عوامل النصر على الأعداء، ويساعد على تحقيق مبدأ المباغتة، مما عرف أثره الكبير في الحروب الحديثة، فكان (ص) يعطي قائد السرية رسالة، يأمره بفتحها، بعد مسير مدة معينة، في اتجاه معين، ثم يعمل بمضمونها.

ويرى بعض الكتاب أن الغاية من تلك السرايا، القليلة العدد، لم يكن قتال قوافل قريش، وإنما تهديد سلامة طرقها، وإشعارها بقوة المسلمين، وتحكمهم في طريق مكة والشام، وذلك لدفعها نحو التفاهم مع المسلمين، وإنهاء تلك العداوة للإسلام، وتهيئة الجو لحرية انتشاره، وترك من يريد اعتناق الدين الجديد، دون أن تطارده بالأذى والعذاب، وبالتالي يمكن عندئذ للمسلمين أن يدخلوا مكة، وأن

يطوفوا بالبيت العتيق . ولتحقيق هذه الأغراض ، ولنجاح المسلمين في الضغط على طرق مكة التجارية ، حالف محمد (ص) القبائل النازلة على تلك الطرق .

ومما يؤيد هذا الرأي حول أهداف تلك السرايا ، ان الأنصار، عندما بايعوا محمداً (ص)، بايعوه على الدفاع، لا على الهجوم ، ولهذا كان(ص)صريحاً في ذلك معهم، قبيل غزوة بدر، ولم يوافق على القتال إلا بعد موافقتهم . ومن الخير ان نستعرض هذه السرايا والدوريات الاستطلاعية ، التي سبقت غزوة بدر الكبرى . وهي :

١ ـ سرية حمزة ، وكانت تضم ثلاثين راكباً من المهاجرين ، وقادها حمزة بن عبدالمطلب، واستهدفت تهديد طريق تجارة قريش، بين مكة والشام، ووصلت إلى مكان يسمى (العيص)، على ساحل البحر واعترضت قافلة لقريش، يحميها ثلاثمائة راكب، بقيادة ابي جهل ابن هشام ، وقد عاد المسلمون دون قتال .

٢ ـ سرية عبيدة بن الحارث ، وكانت تضم ستين راكباً من المهاجرين، واستهدفت قافلة لقريش، يحميها أكثر من مائتي راكب، بقيادة أبي سفيان، ووصلت إلى وادي رابغ ، وانتهت دون قتال . وقد فر من المشركين رجلان، كانا يخفيان إسلامهما ، وانضما إلى سرية المسلمين ، واكتفي المسلمون بإظهار قوتهم، وتهديدهم طرق التجارة .

٣ ـ سرية سعد بن ابي وقاص : وكانت دورية استطلاعية ، ضمت ثمانية من المهاجرين، « وقيل عشرين » ، واستهدفت نفس

الأهداف السابقة والتعرض للقافلة، لم يعرف مصدر جلاها، وقد أسرعت القافلة، ولم يستطع المسلمون اللحاق بها .

٤ ــ غزوة ودان ، وتضم مائتي راكب وراجل ، بقيادة الرسول (ص) ، واستهدفت تهديد طرق الشام ، ووصلت إلى موقع يسمى ودان ، للتعرض لقوة من قريش ، ومن بني ضمرة ، ولم يحدث فيها تصادم ، وانتهت بعقد الرسول (ص) حلفا مع ضمرة .

٥ ــ غزوة بواط ، وهي دورية قتال ، تضم مائتي راكب وراجل ، بقيادة الرسول (ص) ، واستهدفت التعرض لقافلة تجارية لقريش ، يحميها مائة رجل ، بقيادة أمية بن خلف ، ووصلت إلى موقع ، يسمى بواط . لكن القافلة وصلتها أخبار خروج المسلمين ، فغيرت طريقها ونجت ، وعاد المسلمون ، بعد إقامة حوالى شهر في بواط .

٦ــ غزوة العشيرة ، خرجت دورية قتال ، تضم مائتي راكب وراجل ، بقيادة الرسول (ص) ، وكانت تستهدف الوصول الى منطقة ينبع ، للتفاهم مع القبائل في هذه المنطقة ، وأقام المسلمون شهراً في موضع العشيرة ، حيث وادعوا فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ، أما قافلة قريش ، وكانت بقيادة أبي سفيان ، فقد نجت ، وعاد المسلمون دون قتال .

٧ــ غزوة بدر الأولى ، وخرج فيها الرسول (ص) ، على رأس مائتي راكب وراجل . لمطاردة قوات للمشركين ، وأغارت على مراعي قرب المدينة ، وسلبت بعض الإبل والأغنام للمسلمين ، ولم يدرك الرسول هدفه في هذه الغزوة ، ووصلت قوته إلى قرب موقع

بدر ، ثم عاد المسلمون الى المدينة .

٨ ـ سرية عبدالله بن جحش ، وهى دورية استطلاعية ، تضم ثمانية من المهاجرين وقد أعطى الرسول إلى قائدها ، عبدالله ، رسالة مكتومة ، أمره أن يفتحها ، بعد يومين من مسيره ، لينفذ ماورد فيها ، غير مستكره أحدا من أفراد قواته على مرافقته . ونفذ قائد السرية الأوامر ، وقرأ الرسالة ، في الوقت المحدد ، وإذا بها « إذا نظرت في كتابي هذا ، فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم » . وأطلع عبدالله أفراد سريته على مضمون الرسالة ، وخيرهم في المسير معه ، حسب أوامر الرسول الكريم ، فلم يتخلف عنه أحد ، وسارت القوة لتنفيذ أغراضها ، وتخلف عنها سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان ، حيث ذهبا يطلبان بعيراً لهما ضل ، فأسرتهما قريش . ونزلت سرية عبدالله أرض نخلة ، ومرت بها قافلة لقريش ، يقودها عمر بن الحضرمي ، وتشاوروا في مهاجمتها ، وهم في آخر شهر رجب ، من الأشهر الحرم ، وترددوا بين القتال وعدمه ، وتحمس بعضهم ، وتذكروا مافعلت بهم قريش ، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم ، فقتله . وأسر المسلمون رجلين ، وفر رجل رابع إلى قريش . وعاد عبدالله بن جحش بالأسيرين والعير ، التي غنمها ، إلى المدينة . ونتج عن هذه السرية مايلي :

أ ـ مخالفة قائد السرية لما ورد في كتاب الرسول (ص) ، يطالب فيه الاستطلاع ، ولم يرد قتالا .

ب ـ اندفاعهم وقتالهم في الشهر الحرام ، مما جعل قريش

تنتهز الفرصة ، لتقوم بالدعاية ضد المسلمين بين العرب .

جـ ـ كانت هذه السرية بداية الأعمال العسكرية المسلحة ، بين المسلمين والمشركين ، فقد وقع فيها أول قتيل من المشركين .

د ـ حملت هذه السرية أول غنيمة مع الأسيرين .

وقد غضب الرسول (ص) من عمل رجال السرية ، وقال : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » . وعنف المسلمون عبدالله بن جحش وأصحابه على عملهم ، ثم نزل الوحي على رسول الله (ص) ، يحل هذه المشكلة ، التي استغلها المشركون ، وأراد اليهود أن يشعلوا نار الفتنة بها فكان قول الله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام ، قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ، إن استطاعوا » ، وفرح المسلمون ، وخاصة عبدالله بن جحش وأفراد سريته ، بقول الله ، وأخذ الرسول (ص) الغنيمة ، والأسيرين ، فطالبت قريش بافتدائهما ، فأبى الرسول إلا أن يأتي سعد وعتبه ، وقال : « إنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما ، نقتل صاحبيكم » . وقدم من مكة سعد وعتبه ، وأطلق الرسول الأسيرين ، فاعتنق أحدهما ، وهو الحكم بن كيسان ، الإسلام ، وبقي في المدينة . أما الآخر فانطلق إلى مكة .

وفي هذه الحادثة ، بين الإسلام رأيه في القتال في الأشهر الحرم ، واعترف القرآن الكريم بحرمة هذه الأشهر ، لكنه رد على دعايات

المشركين بأنه إن كان القتال في الأشهر الحرم جريمة وكبيرة . فهناك ما هو أكبر من هذا العمل إثماً وجريمة ، وهـو الصد عن سبيل الله ، وإخراج الناس من بلدهم الحرام ، وتعـذيب المؤمنين ، لفتنتهم عن دينهم ، ويحق لمن ترتكب في حقه هذه الجرائم أن يقاتل ، في الشـهر الحرام ، وفي غير الشهر الحرام .

غزوة بدر الكـبرى

١٧ رمضان سنة ٢ هـ

كانت حادثة مقتل عمرو بن الحضرمي نذيرة لمشركي قريش . ولا بد أنهم فكروا في الثأر ، وهم إنما ينتظرون الفرصة المناسبة ، للانتقام. وازدادت في نفوسهم هذه الرغبة بعـد ما سمعوه عن تعرض قوافلهم التجارية لخطر مهاجمة المسلمين لها ، مما أصبح معه طريقهم إلى الشام محفوفاً بالخطر الدائم، وهذا مايهدد اقتصادهم بالدمار ، خاصـة وأن هذا الطريق هو أهم طرقهم التجارية .

أما المسلمون فيعتقدون أيضاً في حقهم في مقاتلة قريش ، وبخاصة المهاجرون منهم ، الذين يريدون استعادة أملاكهم وحقوقهم في مكة إلى جانب نقمة المسلمين عامة على قريش ، لموقفها المعادي للإسلام .

أما اليهود فكان موقفهم مريباً في يثرب، فهم يثيرون حرباً باردة ضد المسلمين ، ويختلقون المشاكل . وكأنهم عيون للمشركين بين المسلمين،

أو بتعبير حديث، طـابور خامس، يخدم أعراض مشركي قريش.

وكانت الأسباب البعيدة لغزوة بدر ترجع إلى العداء بين المسلمين ومشركي قريش، نتيجة لما أصاب المسلمين المهاجرين، قبل هجرتهم، على أيدي المشركين، إلى جانب رغبة المسلمين في الحصول على حرية نشر الإسلام، ومنع قريش من تعذيب المسلمين الجدد، وتحقيق حرية الاعتقاد في مكة.

أما الأسباب القريبة، المباشرة، فكانت رغبة المسلمين في التعرض لقـافلة تجـارية لقريش، بقيـادة أبي سـفيان. وقـد خرج المشركون من مكة، لحماية هذه القافلة من المسلمين. وكان المسلمون يرغبون في إرهـاب قريش، وإشـعارها بقوتهـم، فظلوا، على الرغم من نجاة القافلة، وإفلاتها منهم، في موقع بدر، دون أن يعودوا إلى المدينة، ليواقعوا المشركين، الذين خرجوا إليهم.

أما قريش فكانت ترغب في القتال، لتأخذ بثأر عمرو بن الحضرمي، ولتفرض هيبتها بين العرب. ولهذا تغلبت أراء الراغبين في القتال، على الرغم من وصول خبر نجاة القافلة التجارية.

وكانت قافلة قريش هذه في طريق سفرها إلى الشام، فأخذ المسلمون يتربصون عودتها، وبعث الرسول (ص) رجلين، وهما: طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد، فقـاما ليحملا إليه أخبار القافلة، بمهمتهما، على خير الوجوه.

عرض الرسول (ص) على المسلمين أمر الخروج، لاعـتراض

القافلة، وقال: «هذه عير قريش، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها»، فخف البعض، وتثاقل الآخرون، ومنع الرسول (ص) نفراً لم يسلموا وأرادوا الخروج، طمعاً في الغنيمة، واشترط، لخروجهم، أن يؤمنوا بالله ورسوله.

بلغت عدة المسلمين، الذين خرجوا مع رسول الله (ص)، ثلاثمائة وخمسة عشر رجلا، من المهاجرين والأنصار، معهم فرسان وسبعون بعيراً. وقد تحركت هذه القوة، في اليوم الثامن من رمضان، في السنة الثانية للهجرة، وتقدمت دورية للاستطلاع، وتبعتها كتيبتان: كتيبة المهاجرين: ويحمل رايتها علي بن أبي طالب، وعمير بن هاشم، وكتيبة الأنصار: ورايتها مع سعد بن معاذ. والرايتان سوداوان. أما المؤخرة فيقودها قيس بن ابي صعصعة، بينما يحمل الراية العامة، وهي بيضاء، مصعب بن عمير بن هاشم.

وكان المسلمون يتبادلون ركوب الإبل، يعتقب الثلاثة والأربعة منهم البعير الواحد، وكان الرسول (ص)، وهو القائد العام، يركب ويسير، كواحد منهم تماماً، على الرغم من أن شريكيه في البعير عرضا عليه أن يسيرا، ويركب هو، فقال: «ما انتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما».

وصل الخبر إلى المسلمين بخروج قريش من مكة، لنجدة القافلة، واستشار الرسول القائد أصحابه. فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما، ثم قام المقداد بن عمرو، وقال: (يارسول الله، أمض لما امرك الله، فنحن معك،

والله لانقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون » ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برمك الغماد ، لجالدنا معك من دونه ، حتى تبلغه) . وسكت الناس ، وعاد الرسول يقول : «أشيروا أيها الناس» . وكان يقصد بكلامه الأنصار ، الذين بايعوه يوم العقبة بيعة دفاع ، لا بيعة هجوم ، فكان محمد (ص) يخشى أن يكون رأي الأنصار الدفاع عن المدينة ، إذا هوجمت فحسب .

وشعر الأنصار بذلك ، فقام سعد بن معاذ ، صاحب رايتهم ، وقال : « لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ » قال « أجل » ، فقال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض لما أردت ، فنحن معك والذي بعثك ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته ، لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً ، لعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » . وبدا الانشراح على وجه الرسول (ص) ، بعد ماسمعه ، وقال : (سيروا وأبشروا) .

ارتحل المسلمون حتى كانوا قرب بدر ، وانطلق الرسول بنفسه ، يستطلع أخبار قريش ، حتى علم ، من شيخ من العرب ، أن عير قريش قريبة منه ، وأخفى الرسول شخصيته عن ذلك الشيخ ، زيادة في الكتمان والحيلة . ثم أرسل الرسول (ص) دورية استطلاع لمعرفة الأخبار عن

رجال قريش، ومواضع نزولهم، وقد نجحت الدورية الأولى - وكان من رجالها علي - في الوصول إلى مياه بدر، وعادت بغلامين لقريش، ذكرا للرسول موضع قريش، وانكرا معرفتهما بعدد المقاتلين: «كيف ينحرون يومياً؟» فأجابا: «يوماً تسعاً، ويوماً عشراً» فعلم الرسول ان أعداءه بين التسعمائة والألف. كما عادت الدورية الثانية ببعض المعلومات، من حديث كان يدور بين امرأتين، عند مياه بدر، عرف منه أن قريشاً على بعد يوم، أو يومين، عن موضع بدر.

وعندما رغب الرسول في أن يعسكر، مع المسلمين، في أدنى ماء من بدر، جاءه الحباب بن المنذر، وقال له: «أرأيت هذا المنزل منزلا أنزلكه الله، فليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الراي والحرب والمكيدة؟» فأجابه الرسول (ص): «بل هو الراي والحرب والمكيدة» فقال: «يارسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزل، ثم نعور ما وراءه من القلب (القلب جمع قليب، وهو البئر)، ثم نبني عليه حوضاً، فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب، ولا يشربون». وسرعان ما نفذ محمد رأي الحباب، لما ظهر له من صوابه. ونزل المسلمون في معسكرهم، وامتلكوا مواضع الماء، وأتموا عملية بناء الحوض، وردموا الآبار الباقية، ثم أخذوا قسطهم من الراحة ليلاً، ليكونوا على أتم استعداد في الصباح.

كان أبو سفيان، وقد عاد بالقافلة الكبيرة من الشام، يخشى أن

يغنمها محمد وأصحابه، وقد سمع بخروجهم، لاعتراضها. وكانت القافلة من أكبر القوافل، التي ترسلها مكة عادة: ففيها حوالي ألف بعير، محملة بالبضائع، حتى قيل إن معظم أغنياء قريش، رجالا ونساء، كانوا قد ساهموا فيها، وقدرت أثمانها بخمسين ألف دينار. لهذا ارسل أبوسفيان رجلا إلى مكة، يستنجد بقومه لإنقاذ أموالهم، ويخبرهم بخروج محمد ورجاله، ليعترضوا سبيل القافلة. ووصل هذا الرجل، الموفد إلى مكة، (وهو ضمضم بن عمرو الغفاري)، وجعل يصيح: «يامعشر قريش، اللطيمة. اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لاارى أن تدركوها، الغوث، الغوث.»

ثارت حمية قريش، وخاف أصحاب الأموال ضياع أموالهم، وزاد في إثارتهم ابوجهل، وعامر بن الحضرمي، أخو عمرو، الذي قتل في نخله وقيل إنه لم يتخلف من أشراف قريش ورجالاتها إلا ابولهب، وقد أرسل عنه رجلا. اما أبوسفيان، فاستطاع، بخبرته وحنكته، أن يتجنب مواقع المسلمين وطرقهم، وانحرف إلى طريق بعيدة عنهم، ونجا مع القافلة، باقترابه نحو الساحل، ثم اتجه مسرعا نحو الجنوب، وأرسل إلى قريش يخبرها بنجاة القافلة.

أما القوة المشركة، فكان رجالها يسيرون غور عدوهم، وأرسلوا عمير بن وهب الجمحي، ليتعرف لهم على قوة المسلمين، فعاد يذكر أنهم حول الثلاثمائة رجل، لاكمين لهم ولا مدد، ولاملجأ لهم إلا

سيوفهم ، فلايموت الرجل منهـــم ، قبل أن يقتل رجلا مثله . وتردد الناس في متابعة الزحف ، لقتال المسلمين ، بعد أن اطمأنوا على نجاة أموالهم ، فرجع بنوزهرة إلى مكة ، وصار أبوجهل يزيد في حماس الناس للقتال ، ويقول : « والله لانرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم عليه ثلاثة ، ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمســيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعــدها . »

وحاول بعضهم أن يثني أباجهل عن موقفه ، ويقنعه بالعودة ، فاتهمهم بالجبن ، وأصر على القتال ، وأثار حمية عامر الحضرمي ، فنزع هــذا ثيابه ، وصار ينادي : « واعمراه ، واعمراه » . وهكـذا نجح رأي أصحاب الزحف ، وسايرهم الآخرون ، لئلا يتهموا ، أمام قومهــم ، بالخوف والجبن ، وزحفوا نحو موضع بدر .

أقام الرسول (ص) مقرا للقيادة ، سمي العريش ، في موضع مشرف على المنطقة ، التي رسمت الخطــة على أن يجري القتــال فيها . ثم نظم الرسول القائد قواته ، ورتب صفوف المقاتلين ، وشجعهم ، وحرضهم على الصبر عند اللقاء ، وأمرهم أن يثبتوا في مواقعهــم ، وأن يصدوا هجمات المشركين عنهم . وكانت طريقة القتال ، عند المسلمين ، طريقة الصف ، بقيادة موحدة ، بينما كان المشركون بدون قيادة ، وكان أسلوبهم في القتال الكر والفر ، ويقاتلون كأفراد لا كوحدة .

بدأ المشــركون بالقتال ، فتقدم منهم الأسد المخزومي ، وأقسم إلا أن يشرب من حوض المسلمين ، أو ليهــدمنه ، أو ليموتن دونه ، فعاجله حمزة بضربة ، أطاحت بساقه ، وبأخرى قضت عليه . فبرز من

المشركين ثلاثة للمبارزة ،وهم : عتبة ، وشيبة ـ ابنا ربيعة ـ والوليد بن عتبة. وخرج لهم فتية من الأنصار ، فصاح المشركون : « مالنا بكم من حاجة ، إنمـا نريد أكفاءنا من قومنا » فأعادهم الرسول (ص) ، وخرج لهم :حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، بارز حمزة شيبة ، فقتله ، وبارز علي الوليد ، فقتله . ثم أعانا عبيدة على مبارزة عتبة ، فقتلوه ، وجرح عبيدة .

ثارت مراجـل غضب المشركين ، أمام هذه البداية السـيئة للمعركة ، وقتل أربعة من أبطالهم ، فرشقوا المسلمين بسهامهم ، وهجم فرسانهم، وماتنبهوا لخطة المسلمين في القتال : إذ صمد هؤلاء، ورابطوا، حسب أوامر الرسول (ص)، في مواضعهم ، وأخذوا يصوبون نبالهم نحو سادات قريش، تصويباً دقيقاً، وأخذ الواحد منهم يسقط تلو الآخر، ففقدت مراكز القيادة بينهم ، فنزل الرسول (ص) يوحد الصفوف ويقودها بنفسه ،وهي تقترب من قوات العدو . ولما تأكد المسلمون من ضعف قوات المشركين، وبدء انهزامهم،أصدر الرسول أوامره بمطاردة الأعداء ، والشد عليهم ، فكانت هزيمتهم ، وانتصار المسلمين .

كانت غزوة بدر هذه صباح الجمعة ، ١٧ رمضان ، في السـنة الثانية للهجرة، وانتهت مساءه، وبقي المسلمون ثلاثة أيام في بدر ، بعد المعركة ، ثم عادوا إلى المدينة. وقد خسروا أربعة عشر شهيداً ، وخسر المشركون سبعين قتيلا ، وأسر منهم مثل هذا العدد .

ويعود انتصار المسلمين، في معركة بدر، إلى عوامل عدة ، أهمها :

القيادة ، وما امتاز به الرسول (ص)، كقائد، من مزايا ، جعلت قيادته الموحدة ، وحسن ضبطه للمسلمين، من أهم عوامل تنظيم المعركة ، والإفادة من تلك الفئة القليلة المنظمة ، إفادة لم تستطع قريش أن تحصل على ما يشبهها ، على الرغم من كثرة عدد مقاتليها . كما امتازت قيادة محمد (ص) بحب الجند لها ، وطاعتهم أوامرها ، طاعة اختيارية ، سريعة الاستجابة ، مع تنفيذ تلك الأوامر ، تنفيذاً دقيقاً، يمليه الإيمان بمحمد(ص) . كرسول . وامتاز الرسول القائد ، في موقفه العصيب، بصبر نادر ، وقوة للأعصاب عجيبة ، وإيمان بالله ونصره قوي ، ونزل إلى ميدان المعركة ، يحمس المؤمنين ، ويثبت قلوبهم ، فازدادوا اندفاعاً واستماتة . وهم يرون رسول الله بينهم .

بينما لم تكن عند المشركين قيادة موحدة، وبين القوم زعماء ، كل يعتد بنفسه ، في مقدمتهم : أبوجهل ، وعتبة بن ربيعة . ونشأ عن عدم وجود قيادة موحدة أن كان القتال عندهم فردياً ، كل من المقاتلين يستهدف البطولة الشخصية ، مما أضعف قوتهم ، كمجموعة كبيرة .

وكان المسلمون يقاتلون عن عقيدة، لايزعزعها شك ولا ارتياب ، ولا يرجون ربحاً مادياً ، فقد استمر عزمهم على القتال ، على الرغم من نجاة القافلة ، وإنما كانوا يطلبون النصر على من اعتدى عليهم ثلاثة عشر عاماً في مكة ، او الاستشهاد والثواب من الله . إنهم يقاتلون لاستعادة حقوقهم في مكة ، وفي الحصول على حرية عقيدتهم، لتكون كلمة الله هي العليا . بينما لم يكن عند عدوهم مثل هذه الأهداف والمثل

العليا. لقد رفع كل ذلك من معنويات المسلمين، وزادها قوة تشجيع محمد (ص) لهم، قبيل القتال، أو في أثنائه، بعد أن رأوه يدعو ربه، يستنجزه وعده، ويقول: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها، تحاول ان تكذب رسولك، اللهم فنصرك، الذي وعدتني»، وازداد المسلمون حماساً، حين سمعوا رسول (ص) يحرضهم، ويقول: «والذي نفس محمد بيده. لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل، صابراً، محتسباً، مقبلا، غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة» وفي مثل هذه المواقف نزل قوله تعالى: «يا أيها النبي، حرض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون، يغلبوا مائتين. وإن يكن منكم مائة، يغلبوا ألفاً من الذين كفروا، بأنهم قوم لا يفقهون».

وصلت القوة المعنوية لدى المسلمين، المقاتلين في بدر، إلى الأوج، فجعلت من الفتية الأحداث صوراً من البطولة الخالدة: فهذا عبدالرحمن ابن عوف يقول: «إني لفي الصف، يوم بدر، إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما. إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: «ياعم، أرني أبا جهل» فقلت: «يا ابن أخي ماتصنع به؟» قال: «عاهدت الله، إن رأيته، ان اقتله، أو أموت دونه» وقال لي الآخر، سراً من صاحبه، مثله. فأشرت لهما إليه، فشدا عليه، مثل الصقرين، فضرباه، حتى قتلاه، وهما أبنا عفراء، وقد استشهد هذان البطلان في بدر.

هذا، وقد عبأ الرسول القائد قواته تعبئة منظمة، تناسب الأهداف التي يريدها، والمنطقة التي يعمل فيها، فسبقته دوريات الاستطلاع

والمقدمة ، كما تأخرت عنه المؤخرة، لحماية ظهر المسلمين، وذلك في مسيره نحو بدر . ثم كانت طريقة الصفــوف، التي يقول عنها بعض العسكريين: إنها تؤمن السيطرة على القوة بكاملها، وتؤمن احتياطاً من الصفوف الخلفية ، يستخدمه القائد، عند الحاجة ، وأمام الطوارىء . وهي طريقة تصلح للدفاع والهجوم . بينما لا تحقق طريقة الكر والفر ، التي استخدمها المشركون، هذه الميزات . وكان الرسول (ص) يرتب بنفسه هذه الصفوف ويعدلها ، وامرهم ألا يحملوا على العدو إلا بأمر منه ، وأن يصدوا هجوم العدو بنبالهم، أول الأمر. وهكــذا كان كل ما يجري في المعركة إنما يصدر عن أمر القيادة ، من تعبئة ، وتنظيم ، ومبارزة، وثبات، ثم هجوم ، أنهى المعركة، وطارد به المسلمون فلول قريش . كما أوجد الرسول (ص) للمقاتلين كلمة للتعارف ، كانت في بدر: « أحد ، أحد » ،وذلك ليتم تعارفهم، حين تشتد المعركة ، ويختلط الحابل بالنابل، خاصة وان الطرفين كان أفرادهما في أشكال متشابهة في الهيئة واللباس والسلاح ، فكانت لكلمة التعارف ، أو السر ، أهمية كبيرة .

وكانت غزوة بدر أول نصر حربي كبير، يحرزه المسلمون، فقويت به ثقتهم بأنفسهم ، بعــد ثقتهم بالله ، ووعــده لنبيه بالنصر المبين . وإذا كانت حادثة الهجرة أكبر نصر سلمي ، في المواقف السلبية ، فإن غزوة بدر كانت أول نصر عسكري، في المواقف الإيجابية . واعتز المسلمون بهذه الغزوة ، فسموها « غزوة الفرقان » ، ولقد تركت هذه الغزوة في

قلوب أهل مكة حزناً وأحقاداً، إن استطاعت ان تكبت عاطفة الألم منها أياماً، فأنها لم تلبث أن تفجرت بالبكاء، وطلب الثأر، لسبعين قتيلا، جلهم من وجوهها وكبرائها، فرصدت أموال تلك القافلة الناجية، المسببة للمعركة، لحرب الرسول واصحابه.

ولم يقف تيار هذا النصر داخل نطاق مكة، وإنما شاع خبره بين العرب جميعاً، فوطد للمسلمين، في النفوس، الرهبة والاحترام لقوتهم الناشئة، وكسر شوكة المنافقين في المدينة، بعد ما رأوه من النصر الباهر على قريش القوية.

ظهرت، بعد النصر مباشرة، مشكلة الأنفال (الغنائم)، إذ أراد كل فريق من المسلمين ان يظهر حقه في الغنيمة، دون غيره: هؤلاء جمعوا الغنائم، وأولئك طاردوا العدو، وآخرون حرسوا مركز القيادة، وقاموا على حراسة الرسول القائد، وأناس تركوا في المدينة، للقيام بمهمات، كلفوا بها، من قبل الرسول (ص). فعلى من توزع الغنائم؟ أمر محمد (ص) أن تجمع الغنائم، حتى يرى فيها رأيه، وقبيل وصول المسلمين إلى المدينة، قسم الرسول الغنائم بين المسلمين على السواء. ويقول معظم كتاب السيرة إن آية توزيع الغنائم نزلت بعد بدر، وبعد توزيع غنائمها. وكان الرسول (ص) قد جعل للفرس حصة، كما للفارس، وجعل لورثة شهداء المعركة حصة هؤلاء الشهداء، وجعل حصة لكل من حضر، أو لم يحضر، المعركة، ممن كانوا قد تخلفوا بأمر من الرسول (ص)، أو لعذر مقبول.

obeikandi.com

ثم صـــار توزيع الغنـــائم ، بعد ذلك ، وفق الآية الكريمـــة : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فان لله خمسه ، وللرسول ، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » .

أما أسرى الغزوة ، فقد أوصى الرسول (ص) صحابته بحسن معاملتهم فقال « استوصوا بالأسارى خيرا » . ثم بدأت عملية فدائهـــم ، وكانوا ثمانية وسبعين أسيراً : فمنهم من افتدى نفسه بالمال ، فكان يدفع واحدهم بين ألف وأربعة الآف درهم . أما الفقراء منهم، فأطلق سراح بعضهم ، دون مقابل : مثل الشاعر « أبو عزة عمرو بن عبدالله بن عمير الجمعي » الذي قال للرسول : « لي خمس بنات ، ليس لهن شيء ، فتصدق بي عليهن، يا محمد ، وإني أعطيك موثقاً ، لا أقاتلك ، ولا أكثر عليك أبداً» ، فأطلقه الرسول (ص)، دون فداء ، أما المتعلمون من فقراء الأسرى، فقد كلفهم الرسول (ص) أن يعلم الواحد منهم عددا من أطفال المسلمين القراءة والكتابة ، وتم إطلاق سراحهم ، بعد ذلك . وكان عمر بن الخطاب ، يرى - على خلاف رأي أبي بكر - أن يقتل الأسرى ، وقال : «يارسول الله ! هم أعداء الله ، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم ، هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة . . . » ولم يقف الرسول وصحابته إلا إلى جانب الرحمة والعفو ، وعز على عمر أن يفتدي سهيل بن عمرو ، وكان لسانه شديدا على الإســـلام . فقال للنبي : « يارسول الله ! دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو ، فيدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن

أبداً . » فكان جواب النبي دستورا في معاملة الأسير ، حين قال : «لا امثل به ، فيمثل الله بي ، وإن كنت نبيا » .

ولم يقتل من الأسرى إلا رجلان، اعتبرهما النبي مجرمين لا اسيرين، وهما: النضر بن الحارث ، وعقبة ابن أبي معيط ، وكانا قد ارتكبا في حق المستضعفين من المسلمين. وفي حق الإسلام ، في مكة ، مايستحقان عليه الموت. فلم يقتلا، لأنهما أسيران، وإنما قتلا كمجرمي حرب .

صعقت مكة بخبر الهزيمة ، ومقتل كبار قريش ، وجف الدمع في مآقي قريش ، واصيب أبو لهب بالحمى ، فمات بعد ستة أيام ، وامتنع الناس من البكاء ، لئلا يشمتوا بهم محمداً (ص) واصحابه ، لكنهم لم يستطيعوا الصبر طويلا على ذلك ، فانفجرت مكة ، بعد شهر ، بالبكاء والعويل ، وقصت النساء شعورهن ، واقمن النواح والصراخ في كل مكان، إلا هند، زوجة أبي سفيان، التي قتل أبوها، عتبة ، وأخوها ، الوليد، وعمها، شيبة، في بدر، ولما قيل لها في ذلك، قالت: «أنا أبكيهم، فيبلغ محمداً وأصحابه . فيشمتوا بنا ، ويشمت بنا نساء بني الخزرج ، لا والله ، حتى أثأر من محمد وأصحابه».

ولما وصل خبر انتصار المسلمين في بدر إلى المدينة، ضجت جنبات المدينة بالفرحة ، تملأ قلوب أبنائها المؤمنين . ولكن بعض اليهود والمنافقين حاولوا تكذيب خبر النصر، ولم يطل الأمر بهم ، حتى طلع الرسول، بقواته، عليهم، فانهارت اكاذيبهم، حين قال أناس منهم إنه قتل، وأسقط في أيديهم ، حين رأوا قوة محمد ، وقد عقد لواء النصر لها ، قد ازدادت في المدينة تمكناً ، فأصبحت قادرة على رد كل عدوان ، بجرأة

وقوة . وأخذت تلك الفئات، من اليهود والمنافقين، تتآمر على المسلمين، وقد حرق الغيظ أكبادها، لما ناله المسلمون من نصر في بدر. وكان الرسول يعلم حقيقة هذا النفر من أهل يثرب، ويراقب حركاتهم، بحذر وحيطة. لكن انتصار بدر أكسب المسلمين في المدينة قوة وجرأة ومهابة، لم تكن لهم من قبل، إذ كانوا قبل ذلك يغضون الطرف عن بعض حوادث الاعتداء أو الشتم، أو الاستخفاف بهم وبدينهم، أما الآن، فقد عزموا على أن يردوا كل عدوان بالقوة والحزم، لوضع حد لأعداء الإسلام، من يهود ومنافقين، ولهذا عمدوا إلى قتل أبي عفك. وهو من بني عمرو بن عوف، لكثرة طعنه في الإسلام ونبيه، في شعره وشدة تحريضه لقومه ضد المسلمين، فقتله سالم بن عمير، في بيته. كما قتلت عصماء بنت مروان، لشدة أذاها للإسلام ورسوله. وحين قيل لقاتلها، عمير بن عوف، «أنت قتلتها يا عمير؟» أجاب، «نعم، فوالذي نفسي بيده، لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي، حتى أموت، أو أقتلكم».

وكذلك قتل المسلمون كعب بن الأشرف، الذي أكثر من التحدي - بأقواله وأفعاله - للمسلمين، حتى انه كان يقول عن مشركي قريش، الذين قتلوا في بدر: «هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس، والله لئن كان محمد قد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها». وذهب إلى مكة، وصار يحرض أهلها على الثأر، ويبكي أصحاب القلب (المشركين الذين قتلوا في بدر، ودفنت جثثهم في قليب).

أما مشركو المدينة ، فقد اعتنق معظمهم الإسلام ، بعد ما رأوا من قوة المسلمين ، وانتصار دعوتهم . وكسب المسلمون كسباً آخراً إذ عقدت أكثر القبائل ، النازلة على الطريق بين مكة والشام ، معاهدات معهم ، فزادت هذه المحالفات من سيطرة المسلمين على هذه المنطقة وتلك الطريق .

أما اليهود ، فعلى الرغم مما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومحالفات ، فإنهم كانوا يحقدون على الرسول (ص) . وأصحابه ، وازدادوا حقداً ، بعد غزوة بدر ، فأخذوا يجاهرون بعدائهم ، ويتعاونون مع المشركين ، ويرشدونهم إلى مايريدون من أخبار المسلمين . هذا في الوقت الذي كان لابد للمسلمين من تأمين قاعدتهم في المدينة ، بحيث يطمأن إليها ، في حال هجوم ، يقوم به أعداؤهم ، مشركي مكة ، ولا بد من تطهير المدينة من الجواسيس والخونة ، لتكون قاعدة آمنة من الأخطار الداخلية والخارجية . وقد تأكد المسلمون من تجسس اليهود عليهم ، ونقلهم المعلومات إلى قريش ، وإظهار العداوة جهراً للمسلمين ، مما يناقض العهود المبرمة معهم ، وكان لابد من اتخاذ موقف حازم معهم . وجاء السبب المباشر ، عندما تعرض يهود قينقاع لامرأة مسلمة ، جاءت إلى سوقهم ، ومعها حليها ، تعرضها على صائغ منهم ، فأثار عملهم أحد المسلمين ، فقفز على يهودي منهم ، وقتله ، فتكاثر اليهود عليه ، وقتلوه ، وعرفوا مافعلوا ، فذهبوا إلى حصونهم ، يمتنعون بها ، ويتحصنون . ولم يكتف هؤلاء اليهود بما فعلوا ، بل أخذوا يستخفون بتهديد محمد لهم ، وطلبه إليهم أن يكفوا أذاهم ، وأن يحفظوا عهدهم ، فكانوا يجيبون :

obeikandi.com

« لا يغرنك يا محمد ، إنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا ، والله ، لئن حاربناك ، لتعلمن أنا نحن الناس » .

بعد هذه المواقف العدوانية ، كان لابد من الإسراع في سحق هذه العناصر ، التي تنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على المسلمين. لهذا خرج الرسول (ص) على رأس المسلمين ، وقصدوا منازل بني قينقاع وحصونهم ، وضربوا عليها الحصار خمسة عشر يوماً ، حتى انهارت أعصابهم ، وأصابهم اليأس ، وأعلنوا الاستسلام . وكان الرأي أن يقتلوا ، لما ارتكبوه في حق المسلمين ، لكن (عبدالله بن أبي) أصر في رجائه للرسول أن يعفو عنهم ، وحاول الرسول التخلص من وساطته ، وعبدالله يقول : « يامحمد ! أحسن في موالي » . وأخيراً رأى محمد أن يحسن إلى (ابن أبي) ، فقال له : « هم لك ، على أن يخرجوا من المدينة ، لا يجاورونا بها » . فخرج يهود بني قينقاع ، تاركين سلاحهم حتى بلغوا وادي القرى ، فأقاموا هناك فترة من الزمن ، ثم ارتحلوا شمالا ، حتى بلغوا أذرعات (في شرق الأردن) ، فأقاموا فيها . وبذلك تخلص المسلمون في المدينة من عدو داخلي ، كان أشد خطراً عليهم من أعدائهم خارجها .

ويخطيء من يظن أن طرد اليهود من بني قينقاع كان بسبب اعتدائهم على المرأة المسلمة ، فالواقع أن سلامة المدينة ، ومستقبل المسلمين والإسلام ، كان يقتضي تلك الخطوة ، بعد الخيانات المتكررة والأعمال العدوانية من قبل هؤلاء اليهود .

ظلت نفوس المشركين تغلي ، غليان المرجل ، لما نالهم من هزيمة

منكرة في بدر ، وأخذوا يعدون العدة للتآمر، فقام جمع من بني غطفان وبني سليم يتهيأ للإغارة على المسلمين ، ولما علم الرسول (ص) بخبرهم ، خرج ، مع مائتين من أصحابه ، حتى وصل إلى منطقة ، تسمى قرقرة الكدر ، ليأخذ عليهم الطريق ، لكنه لم يجد منهم أحداً ، إذ فرت جموعهم ، عند سماعهم بمقدم المسلمين لقتالهم ، فجمع الرسول ماوجد من إبلهم ، وقسمها على أصحابه ، وبعد ثلاثة أيام من الإقامة في تلك المنطقة ، عاد المسلمون إلى المدينة .

وكانت هذه الغزوة ومثيلاتها ، تستهدف ، إلى جانب القضاء على محاولات لبعض القبائل في الاعتداء على المسلمين ، توطيد نفوذ المسلمين في دائرة واسعة حول المدينة ، والسيطرة على الطريق التجارية بين مكة والشام .

كذلك خرج (أبو سفيان) ، على رأس مائتي رجل ، من مكة ، ليفاجيء المسلمين ، في المدينة ، بهجوم يثأر به لما أصاب قريشاً في بدر ، ونزل بقوته في أطراف المدينة ليلا ، وعرف من بعض اليهود أخبار المسلمين ، وتسلل مع رجاله إلى منطقة ، تسمى العريض ، فحرقوا للمسلمين بيتين ، وبعض أشجار النخيل ، وقتلوا رجلين ، ثم ارتد (أبو سفيان) بقوته مسرعاً نحو مكة ، مكتفياً بما ناله ، خشية أن يخرج المسلمون لهم . وصل الخبر إلى المدينة ، فخرج الرسول (ص) ، على رأس قوة خفيفة ، لمطاردة المشركين ، الذين جدوا في الفرار ، وصاروا يلقون مايحملون من أكياس المؤونة ، وقد عثر المسلمون عليها في طريقهم ،

وكان أكثر تلك الأكياس من السويق (وهو دقيق الحنطة أو الشعير) ولهذا سميت الغزوة (غزوة السويق). وعاد محمد، مع أصحابه، إلى المدينة، دون حدوث أي اصطدام.

وقد حدثت بعض الغزوات، المشابهة لغزوة السويق في نتائجها، مثل: غزوة ذي أمر، التي خرج فيها الرسول (ص)، على رأس اربعمائة وخمسين رجلا، حين بلغه خبر تجمع بني ثعلبه ومحارب يريدون غزو أطراف المدينة، لكنهم فروا، قبل أن يصل المسلمون. ومثلها غزوة بحران، التي خرج الرسول (ص) فيها، بعد أن بلغه أن جمعاً كبيراً من (بنى سليم)، بموضع يسمى بحران، قد تهيأ لقتال المسلمين، فاتجه نحوهم، مع ثلاثمائة رجل، ولم يحدث اصطدام، حيث تفرق بنو سليم، وعاد المسلمون، بعد إقامة حوالي شهرين في تلك المنطقة.

لما يئست قريش من استخدام طريق الشام في تجارتها، بعد أن سيطر عليه المسلمون. وحلفاؤهم، سيطرة كاملة، اتجهت نحو طريق العراق. وخير ما يعبر عن حال قريش حينذاك كلمات قالها أحد القرشيين في مكة، وهو صفوان بن أمية، وهو يخاطب قومه: «إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا. فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوه ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا في دارنا أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام، في الصيف، وإلى الحبشة، في الشتاء». فأجابه (الأسود بن المطلب): «تنكب الطريق على

الساحل ، وخذ طريق العراق » .

وخرج صفوان بقافلة ، قدر ماتحمله بمائة ألف درهم ، وأخذ معه ، كدليل له في الطريق الجديد ، (فرات بن حيان)، من بني بكر ابن وائل . ولما وصل الخبر إلى الرسول (ص) ، عن طريق (نعيم بن مسعود الأشجعي) ، الذي كان في مكة ، عند تجهيز تلك القافلة وخروجها، أرسل محمد (ص) سرية ، بقيادة (زيد بن حارثة) ، مع مائة رجل ، واعترض طريق القافلة ، ولقيها عند القردة ، ففر رجال القافلة ، وأسر دليلها ، وجيء به ، وبالغنائم ، إلى المدينة .

اعتنق الدليل الإسلام . وأفاد المسلمون من الغنيمة ، وحرمت قريش من طريق مكة إلى العراق ، كما حرمت من طريق مكة إلى الشام ، فزاد ذلك في فرض الحصار الاقتصادي عليها ، ولهذا حاولت تحطيم الحصار ، والثأر لهزيمتها ، يوم بدر ، فكانت غزوة أحد .

غزوة أحد

حلت بقريش وتجارتها نكبة ، بعد سيطرة المسلمين على الطرق التجارية إلى الشام والعراق ، ولم تكن تجارتها إلى الحبشة والجنوب رابحة ، كتجارتها إلى الشمال ، فكان لابد لها من الاصطدام مع المسلمين، أو الخضوع لهم ولشروطهم ، وأولها حرية العقيدة . مما يؤدي إلى انهيار وثنية قريش ، وإضعاف مكانتها في مكة . ولم تكن غزوة السويق لتشفي غليلها، بالنسبة لما أصابها في موقعة بدر، واستمر استعدادها،

وقد خصصت أرباح القافلة التجارية المشهورة، لتهيئة المؤونة والسلاح لمعركة الثأر.

خرج مشركو مكة، وعـــددهم ثلاثة آلاف مقاتل. بينهم مائة من ثقيف، ومعهم مائتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، بقيادة أبي سفيان، وقد رافقهم عدد من نسائهم، وعلى رأسهن هند، زوج أبي سفيان، وكانت من أكثر النساء إصراراً على الخروج، وحماساً لقتل المسلمين. وقد سلكت هذه القوة الطريق نحو المدينة، ووصلت موضعـــاً قريباً منها، فأطلقت خيلها وأبلها ترعى زرع الأنصار. ثم تابعت زحفها، حتى نزلت عند بعض سفوح جبل أحد، على بعـــد خمســـة أميال من المدينة.

وكان العباس، عم النبي، في مكة، وكان مازال على دين قومه، لكنه كان محبا لابن أخيه، متعصباً له، معجباً به، ذاكراً انه موقفه منه، في بدر وبعدها، من حسن المعاملة، فلما رأى جمع المشركين قد تهيأ للمسير، بذلك العدد الكبير، كتب كتاباً يصف فيه جمعهم وعددهم، وأعطاه إلى رجل من بني غفار، يسرع به إلى المدينة، فوصلها في ثلاثة أيام، ودفع بالكتاب إلى محمد (ص). وأسرع الرسول يتدارك الأمر، فأرسل رجلين يستطلعان المواضع، التي وصل اليها المشركون، وعرف منهما أن قوة قريش قاربت المدينة، ودوابها ترعى زرع الأنصار.

أخذ المسلمون أسلحتهم، وقاموا على حراسة مداخل المدينـــة، وجمع الرسول (ص) أهل الرأي في المسجد، ليتشـــاور معهم في أمر الدفاع، ومجابهة الخطر، وكان رأيه أن يتحصن المسلمون في مدينتهم،

فإذا أقتحمها الأعداء، قاتلوهم داخلها، خاصة وأن المسلمين على معرفة بمدينتهم وشوارعها، بينما يجهل العدو ذلك. وكان كبار الصحابة على هذا الرأي، لكن فئة اخرى، ومنهم شباب متحمس، أبت إلا الخروج ومنازلة العدو، خارج المدينة، خاصة وأن العدو وطىء أرضهم، وأفسد زرعهم.

وهز الحماس والإيمان قلوب جمهور المسلمين، وتكلم الكثيرون، مرغبين في الخروج، طالبين النصر أو الجنة، على الرغم من تحذير الرسول (ص) وقوله لهم: «إني أخاف عليكم الهزيمة». وأصروا على الخروج، وتمسك محمد (ص) بمبدأ الشورى، ونزل عند رأي الكثرة من المسلمين.

خرج الرسول (ص)، على رأس الف رجل، حتى نزل الشيخين (وهو موضع في ضواحي المدينة)، وهناك لاحظ بين قواته مفرزة، لا يعرف أهلها، فسأل عنها، فقيل له إنهم من اليهود، حلفاء (عبدالله بن ابى)، فرفض مساعدتهم، فعادوا إلى المدينة. كذلك عاد (عبدالله بن ابى)، مع جماعته، فبقى النبي في سبعمائة من أصحابه فقط.

نظم الرسول (ص) خطة القتال، واختار موقعا يعسكر فيه رجاله، على سفح جبل أحد، جاعلين ظهورهم إلى الجبل، ووضع خمسين من الرماة، بقيادة (عبدالله بن جبير) في منطقة مرتفعة، تسيطر على طريق، تؤدي إلى خلف قواته، لحماية ظهر المسلمين من التفاف المشركين، ولحماية قواته، إن اضطرت إلى التراجع والانسحاب. وأصدر أمره إلى هذه القوة، فقال: «احموا لنا ظهورنا، فإننا نخاف أن يجيئوا من

ورائنا. والزموا مكانكم، لا تبرحوا منه، وإن رأيتمونا نقتل، فلا تعينونا، ولا تدفعوا عنا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل. ثم رتب النبي (ص) أصحابه صفوفا، وتخير الأشـداء ليكونوا في المقدمة، وأمرهم ألا يقاتلوا إلا بأمر منه، وحثهم على الصبر في القتال. وبث الرسول (ص) روح التنافس بين أصحابه في الثبات إبان الالتحـام، فأخذ سيفاً، وقال: «من يأخـذ هذا السيف بحقه» فقام إليه (أبو دجانة سماك بن خرشه) وقال له: «وما حقه، يا رسول الله؟» فقال الرسول «أن يضرب به العدو حتى ينحني» وكان لأبي دجانة عصابة حمراء، تسمى بعصابة الموت، إذا أخرجها، واعتصب بها، علم الناس أنه سيقاتل، فتناول السيف من رسول الله (ص)، وأخرج عصابته، وعصب بها رأسه، وصار يتبختر بين الصفين، فلما رآه الرسول (ص) قال: «إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هـذا الموطن.»

أما المشركون فنظموا صفوفهم: جعلوا (خالد بن الوليد) على الميمنة، (وعكرمة بن أبي جهل) على الميسرة، وجعلوا اللواء بيد (عبد العزي طلحة بن أبي طلحة)، أما النسوة فصرن يتجولن بين الصفوف، يضربن بالطبول والدفوف، وينشدن، ويحمسن المقاتلين.

بدأت المناوشات بهجوم رجل أوسي مشرك، ذهب إلى مكة، وحرض قريشا ضد المسلمين، وهو أبو عامر، وكان يظن أنه إن نادي قومه لبوه، فصاح بهم «يامعشر الأوس، أنا أبو عامر»، فأجابه الأوس من المسلمين: «لا أنعم الله بك عينـا يافاسق» وهاجموه حتى ارتده واخفق هجوم عكرمة أيضا، حيث رشقه المسلمون بالحجارة.

وخرج من المشركين حامل اللواء طلحة، وهو ينادي : من يبارز؟ فخرج له علي بن أبي طالب ، وضربه ، فقتله . واندفع أبو دجانة ، فما لقي أمامه إنساناً إلا ضربه ، وشق صفوف المشركين ، ورأى شخصا يحث المشركين على القتال ، فحمل عليه، فإذا بصوت امرأة تولول ، وإذا بذلك الشخص هند ، زوج أبي سفيان، فارتد عنها ، ولم يضرب بسيف رسول الله امرأة .

اندفعت قريش إلى القتال ، واشتد الطعن والنزال ، وكانت (هند) قد وعدت وحشيا الحبشي ، مولى (جبير بن مطعم)، خيرا كثيراً ، إذ هو قتل (حمزة) . كما قال له جبير : «إن قتلت حمزة، فأنت عتيق» . وكان وحشي يحسن قذف الحربة ، فصار يترقب حمزة ، وسدد نحوه حربته ، فقذف بها ، فأصابت حمزة في أسفل بطنه ، فخر شهيداً . ويقول وحشي : «تركته حتى مات ، ثم أتيته ، فأخذت حربتي ، ورجعت إلى المعسكر ، وقعدت ، ولم يكن لي بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة أعتقت . »

وخسر المسلمون، باستشهاد حمزة، بطلا عظيما . وعلى الرغم من ذلك، فأنهم اشتدوا في هجومهم ، حتى تصدعت صفوف المشركين ، وتساقط حملة لواء قريش ، حتى قتل منهم تسعة ، من بني عبد الدار . وتقهقر المشركون ، وأخذ المسلمون يطاردونهم ، حتى أبعدوهم عن معسكرهم ، ثم عادوا يجمعون الغنائم ، وهنا رأى بعض الرماة أن يغادروا مراكزهم ، مخالفين أوامر الرسول (ص)، وهم يقولون : « لماذا نقيم هاهنا، وقد هزم الله عدونا ؟ » ولم يبق منهم إلا القائد (عبد الله بن جبير)، مع عدد لا يزيد

على العشرة ، بينما نزل الباقون ، يسهمون في عملية جمع الغنائم .

انتهز (خالد بن الوليد) ، قائد فرسان ميمنة المشركين، فرصة تخلي رماة المسلمين عن مواضعهم ، فهجم بخيله على من بقي ، وأزاحهم ، والتف من وراء المسلمين ، ونادى قومه بمعاودة الهجوم ، فأصبح المسلمون، وقد أحيط بهم، وتزعزع مركزهم ، بعد أن تفرقت صفوفهم، حين انتشروا يجمعون الغنائم . وكانت الحركة مباغتة للمسلمين ، أوقعت بهم خسائر كبيرة ، وتجمع بعض المسلين حول الرسول (ص)، وقد استماتوا في الدفاع عنه ، واقترب المشركون من موضعه ، حتى أصابته حجارة بعضهم، فدمى وجهه ، ثم وقع في حفرة ، كان أبو عامر قد حفرها ، ليقع المسلمون فيها . وقد أخذ (علي) بيده ، فشده منها .

وفي هذا الموقف ، ظهر من حماس المسلمين ، واندفاعهم في صد العدو ، ومنع الأذى عن رسولهم ، ما يندر مثله : فوقف (أبو دجانة) يحمي بجسمه رسول الله ، ويتلقى النبال عنه . ووقف (سعد بن أبي وقاص) يرمي بالنبال ، إلى جانب محمد (ص) ، وبرزت (أم عمارة نسيبة الخزرجية) ، التي كانت من أول النهار تحمل وعاء تسقي منه المسلمين وجرحاهم ، فلما رأت الخطر، المحدق برسول الله (ص) ، ألقت سقاءها ، وتناولت سيفاً ، وأخذت تذود عن محمد (ص) ، حتى أدمتها الجراح .

نجح الرسول وصحبه في شق طريقهم إلى سفح جبل أحد ، وصعدوا إحدى روابيه ، وخفت حدة القتال ، بعد أن صاح أحد المشركين بأن محمداً قد قتل ، وكأن هذا الخبر قد شفى غليل قريش ، وهدأت حدة الهجوم . ثم تنبه بعضهم إلى نجاة الرسول (ص) ، فتبعه (أبي بن خلف) . وهو يقول : «أين محمداً ؟ لا نجوت إن نجا» . وأقبل مسرعاً على فرسه ، فتناول الرسول (ص) حربة ، وسددها إليه ، فطرحته أرضاً ، وتدحرج على السفح ، ولم يلبث أن مات .

حاول (خالد بن الوليد) ، مع فرسانه ، صعود الجبل ، ومطاردة محمد وصحبه ، للقضاء عليهم ، فتصدى له (عمر بن الخطاب) ، مع فئة من الصحابة ، وردوه على أعقابه . وقد أنهك التعب المسلمين ، حتى صلى النبي قاعداً ، وصلى المسلمون قعوداً ، وراءه .

انطلقت نسوة قريش ، في نشوة النصر ، يمثلون بقتلى المسلمين : يقطعن الأنوف والآذان ، كما بقرت هند بطن حمزة ، وأخرجت كبده فلاكتها بأسنانها . وقبل أن تنسحب قوات قريش من ميدان المعركة ، وقف أبو سفيان ينادي ويقول ، موجهاً كلامه للمسلمين : «أفيكم محمد ؟» فلم يجبه أحد ، فقال : «أفيكم ابن ابي قحافة ؟» فلم يجيبوه . فقال : «أفيكم عمر بن الخطاب ؟» فلم يجيبوه . وكان يقدر ان ابرز وجوه الإسلام ، يومئذ ، هي هذه الوجوه ، وأصحابها دعائمه القوية . وأضاف أخيراً : «أما هؤلاء فقد كفيتموهم» . ولكن (عمر بن الخطاب) لم يتمالك نفسه ، فرد عليه ، وقال : «ياعدو الله ، إن الذين

ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله لك ما يسوءك ، وإن محمدا يسمع كلامك الآن . » وصاح أبو سفيان : « يوم بيوم بدر ، الموعد العام المقبل » . فقال الرسول (ص) لأحد أصحابه . « قل نعم ، هو بيننا وبينك موعد . »

انصرفت قريش ، بعد أن دفنت قتلاها ، وعددهم اثنان وعشرون رجلا ، ونزل المسلمون لدفن قتلاهم ، وعددهم سبعون رجلا . ووقف الرسول (ص) أمام جثة عمه ، حمزة ، وقد شوهت ، ومثل بها ، فحزن عليه أشد الحزن ، وقال : « لن أصاب بمثلك أبدا ، ما وقفت موقفا قط أغيظ إلى من هذا ». وأضاف : «والله لئن أظهرنا الله عليهم ، يوما من الدهر ، لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب » ،

فأنزل الله عليه قوله : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم ، لهو خير للصابرين . واصبر ، وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون » . وصبر الرسول ، ومنع عن التمثيل بالقتلى . ثم سجى جثة عمه ببرده ، وصلى عليه ، ودفن بقية القتلى ، حيث لقوا مصارعهم .

اراد الرسول (ص) أن يخفف من وقع الهزيمة في المدينة ، خاصة أمام اليهود والمنافقين ، وأن يعيد للمسلمين هيبتهم ، فقام بعمل جرىء ، في اليوم الثاني من موقعة أحد ، وذلك يوم الأحد ١٦

شوال ، في السنة الثالثة للهجرة : فاستنفر المسلمين ، ودعاهم إلى الخروج ، لمطاردة المشركين ، على ألا يخرج إلا من حضر غزوة أحد. وفعلا خرج الرسول (ص) ، على رأس هذه المجموعة ، المشتعلة حماساً ، والمتدفقة إيماناً ، حتى نزل موضعا ، على مسافة ثمانية أميال من المدينة ، ووصله الخبر ان قريشا قررت الرجوع إليه ، فصمم على لقائها ، وبقي ثلاثة أيام إلى أن تأكد من لحاق المشركين بمكة ، وخوفهم من العودة ، فعاد محمد (ص) إلى المدينة ، وقد اعاد كثيراً من الهيبة للمسلمين بعمله هذا.

اما ابو سفيان ، فقد بلغه ، وهو في طريق العودة إلى مكة ، خبر خروج محمد وأصحابه من المدينة ، وأن قوات جديدة قد التحقت به ، وسمع وصفا لهذه القوة ، من (معن الخزاعي) ، وكان ما يزال على الشرك ، فقال لأبي سفيان : « إن محمدا قد خرج ، في أصحابه ، يطلبكم ، في جمع لم ار مثله قط ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه ، وكلهم اشد ما يكون عليكم حنقاً ، ومنكم للثأر طلباً » . وخاف ابو سفيان ان يخسر ما كان قد كسبه من عز النصر في أحد ، فأسرع بالسير نحو مكة .

أما الرسول (ص) ، فقد واجه ، بعد غزوة أحد ، مشاكل عديدة ، داخلية وخارجية ، وكان لابد من التغلب عليها ، لإعادة الموقف إلى ما كان عليه ، قبل أحد ، بالنسبة للمسلمين : ففي الداخل ، كشف

المنافقون عن وجوهم ، وعرفت حقيقتهم ، قبيل المعركة ، حين تخلوا عن المسلمين ، وعادوا إلى المدينة. وكذلك تجرأ اليهود على المسلمين، وفكروا في التآمر على محمد وصحبه. وفي الخارج ، أذاع المشركون من قريش ، بين العرب ، أنباء انتصارهم على المسلمين ، وقاموا بدعاية واسعة ، لإضعاف شأن المسلمين في نظر القبائل . وكذلك تجرأت بعض القبائل المجاورة على التفكير في غزو المسلمين ، ونهب أموالهم. وكان ذلك كله يقتضي محمداً أن يقوم بحركة تطهير واسعة ، وتنظيم جديد، وضرب بقوة على أيدي المتآمرين والطامعين ، ولهذا نظم بعض السرايا والدوريات ، لتحقيق هذه الأغراض .

سرية أبي سلمة : بعد شهرين من أحد ، بلغ الرسول (ص) أن طليحة وسلمة ، ابني خويلد ، يحرضان قومهما ، من بني أسد ، على غزو المدينة ، ونهب أموال المسلمين ، فقرر أن يضرب العدو قبل أن يصل إلى هدفه ، فشكل دورية قتال ، من مائة وخمسين مقاتلا ، بقيادة (أبي سلمة ابن عبدالأسد) ، ومعه كبار الصحابة، أمثال :(أبي عبيدة ابن الجراح)، (وسعد بن أبي وقاص).وأمرهم بالسير ليلا، والاستخفاء نهاراً، وسلوك طرق غير مطروقة ، ليباغتوا بني أسد ، ونجحت الخطة نجاحاً باهراً، وولى بنو أسد الأدبار . فألف (ابوسلمة) من قواته دوريتين طاردتا العدو ، ورجعتا بالنصر والغنائم ، ثم عادت هذه السرية إلى المدينة .

سرية عبدالله بن أنيس : قامت هذه السرية على رجل واحد ، هو (عبدالله بن أنيس)، وذلك ان الرسول (ص) سمع ان (خالد بن سفيان

الهذلي) بقوم بحشد قوة كبيرة من الأعراب، لغزو المدينة. فأرسل (عبدالله) يستطلع له الأخبار، وسار (عبدالله) حتى لقي (خالد بن سفيان)، فاستدرجه بالكلام، حتى عرف حقيقة نواياه، وتأكد أنه كان يجمع الأعراب لحرب محمد، وغزو المدينة. وحانت لعبدالله فرصة، تمكن فيها من قتل خالد، والعودة إلى المدينة، وتفرق جمع الأعراب، بعد أن انهارت القيادة، بمقتل خالد.

غزوة بني النضير: قصد الرسول منازل يهود بني النضير، في ضواحي المدينة، ليستعين بهم في دفع دية قتيلين، معاهدين للمسلمين، من بني عامر، قتلهما احد المسلمين خطأ. وقد اظهر اليهود الرضى في سداد ما عليهم، وجلس محمد (ص)، أمام أحد بيوتهم، مع أصحابه وبينهم ابو بكر وعمر وعلي، بينما كان اليهود يتآمرون على قتله، حيث اتفقوا على أن يصعد أحدهم، فيلقي بصخرة عليه، فيقتله. وفعلا تعهد منهم (عمرو بن جحاش) أن ينفذ الجريمة. وأحس الرسول بالمؤامرة، وأوحى إليه بها، فانصرف، دون أن يخبر أحداً. ولما علم أصحابه بذهابه إلى المدينة، لحقوا به، فأخبرهم بالمؤامرة اليهودية.

استدعى محمد (ص) احد رجاله، وبعث به إلى يهود بني النضير، يطالبهم بالخروج من البلاد، بعد أن نقضوا العهد، وهموا بقتل النبي (ص)، ومن يرى منهم بعد عشرة أيام. تضرب عنقه. وقرر اليهود الجلاء، بعد أن عرفوا جريمتهم. ولكن المنافقون، وعلى رأسهم (عبدالله بن أبي)، أخذوا يحرضونهم على الثبات، ويتعهدون بنصرتهم على محمد وصحبه.

فاطمأن اليهـود إلى المنافقين، وعزموا على البقاء والقتال، واخذوا يحصنون منازلهم، ويجمعون الحجارة، ويقيمون المتاريس، وجمعوا أرزاقهم ومؤونتهم. ثم أخطروا للنبي (ص) بأنهم لن يخرجوا، وليفعل مابدا له.

سار الرسول (ص)، على رأس المسلمين، فضرب الحصار على منازل بني النضير، خمسة عشر يوماً، وضيق الحصار عليهم، يوماً بعد يوم. ثم قطع المسلمون نخيلهم وأحرقوه، لإضعاف حماسهم في القتال، بعد خسرانهم مايملكون، فأصابهم اليأس، وخابت آمالهم في (عبدالله ابن أبي)، وصحبه، المنافقين. وطلبوا من محمد(ص)أن يعطيهم الأمان على أموالهم ودمائهم وذراريهم، ليرحلوا عن المدينة، فأجابهم الرسول (ص) إلى طلبهم. وحملوا ماسمح لهم بحمله، واقام بعضهم في خيبر، وسار آخرون إلى الشام. وغنم المسلمون كثيراً من الغنائم. اما الأرض، التي كان اليهود عليها، فوزعها الرسول ص) على المسلمين، وبخاصة اولئك الذين كانوا في حاجة. واستراح المسلمون من بطن من بطون اليهود، كان يتحين الفرص للقضاء على الإسلام ورسوله، وإثارة الفتن، وتحريض المشركين ضد المدينة، وكان ذلك في السنة الرابعة للهجرة (٦٢٦م):

وبعد مرور عام على غزوة أحد، تذكر الرسول (ص) كلمة أبي سفيان، يواعد فيها المسلمين، ويقول، في نهاية الموقعة: «يوم بيوم بدر»

والموعد العام المقبل »، وكان ذلك العام عام جدب، فدعا الرسـول (ص) أصحابه للخروج، فصعب ذلك على بعضهم، وتثاقلوا، فأقسم محمد (ص) انه خارج إلى بدر، ولو لم يخرج معه أحد، وزال التردد من نفوس المسلمين، عندما رأوا عزم رسولهم على المضي، وخرجوا معه إلى موقع بدر، وعسكروا هناك، ينتظرون قريشاً. أما قريش فقد خرج منها ألفان من المقاتلين، وعلى رأسهم أبوسفيان، وبعد مسيرة يومين، خاف أبوسفيان أن تخسر قريش ما كسبته من سمعة، بعد انتصارها في احد، فنادى في الناس: «يامعشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب، وإن عامكم هذا جدب، وإني راجع فارجعوا. وفعلا رجع مقاتلو قريش إلى مـكة، مفضلين عدم الاصطدام مع المسلمين. وعاد محمد مع صحبه. وكان لخروج المسلمين في بدر اثر كبير في إزالة آثار موقعـة أحد من النفوس.

خرج الرسـول (ص)، بعد ذلك في بعض الغزوات، لمهاجمة الحشـود، التي كانت تصل أخبارها إلى المدينة، فيسرع محمـد (ص) إليها، قبل غزوها للمدينة: كغزوة ذات الرقاع، وغزوة دومة الجندل (واحة الجوف حالياً)، واذا دلتنا هذه الغزوات على شيء فإنما تدلنا على يقظة الرسول (ص)، وحذره من أن يؤخذ المسلمون على غرة.

غزوة الاحزاب (الخندق) سنة ٥ هـ

كان اليهود يقدرون خطر قوة المسلمين عليهم ، وخطر انتشار الإسلام على كيانهم ، خاصة بعدما رأوه من إخفاق محاولتهم التآمر على الرسول (ص) ، وعلى المسلمين ، مما أدى إلى طرد بني قينقاع وبني النضير . وكان يهود بني النضير قد عزموا على الانتقام ، لعلهم يستطيعون العودة إلى المدينة ، فعمدوا الى تأليب العرب ، وتحريض قبائلهم ضد الرسول (ص) . وأرسلوا ، لتحقيق غرضهم ، وفداً إلى مكة ، من رجاله : (حيي بن اخطب) ، و(سلام بن ابي الحقيق) ، وغيرهما ، ووجد تحريضهم لقريش صدى في نفوس زعمائها ، واعتقدوا ان الفرصة قد حانت ، للقضاء على الإسلام والمسلمين نهائياً ، في المدينة ، بالتعاون مع اليهود . وشجعهم على ذلك ما أصابوا من المسلمين يوم احد ، وأخذ بعض المشركين يستفسرون من اليهود عن رأيهم في دين محمد (ص) ، فقال بعضهم لليهود : «أفديننا خير أم دينه؟» وكان جواب اليهود : «بل دينكم خير من دينه» وهكذا لم يتورع اليهود ، على الرغم من اعتناقهم لدين يقوم على الوحدانية ، عن تفضيل الشرك والوثنية على دين التوحيد ، مدفوعين بأحقادهم وانانيتهم ، ضد الإسلام ورسوله (ص) .

تم الاتفاق بين قريش واليهود على حرب محمد (ص) ، وأسرع الوفد اليهودي لتأليب قبائل أخرى من العرب . فذهبوا إلى غطفان ،

والمرتبطون من بني مرة ، وفزارة ، وسليم ، وأسد ، وغيرها من القبائل، التي يتوقعون منها العون والتأييد ، فحرضوهم ، وذكروا لهم اتفاقهم مع قريش على حرب محمد . وهكذا استطاع اليهود حشد عدد كبير من أعداء المسلمين ، في حلف مشترك ، لمهاجمة المدينة . وخرج ابو سفيان، على راس حوالي خمسة آلاف مقاتل من قريش، وانضم إليهم مثلهم من القبائل الأخرى ، فأصبح جيش الأحزاب حوالي عشـرة آلاف مقاتل .

وصل خبر مسير هذه الألوف من المقاتلين إلى المدينة ، وتدارس الرسول الأمر مع اصحابه ، وكان الرأي أن يتحصنوا بالمدينة ، وأشار (سلمان الفارسي) على الرسول ان يحفر خندقاً حول المدينة ، يحول دون اقتحامها ، وأقر الرسـول رايه ، وبدأ العمل في حفر الخندق، وأخذ الرسـول الكريم (ص) يحفر مع اصحابه ، ويحمل التراب ، ويشجع على العمل، وجعلت الحجارة من طرف الخندق الداخلي، اي من جهة المسلمين ، لتستخدم كسلاح ؛ يقذف بها في وجه العدو، وأخليت المساكن، التي تقع خارج الخندق، وحصنت المنازل القريبة من مدخل المدينة . وكان الخندق شمال المدينة ، يمتد بين جبل سلع وحرة المدينة، وهي المنطقة المكشوفة ، التي يسهل اقتحامها . أما جهات المدينة الأخرى فتحميها أشجار النخيل ، وبعض البساتين والمنازل المحصنة ، مما يضطر قريشا إلى مهاجمة المدينة حتما من شمالها، وقد تم حفر الخندق في ستة

obeikandl.com

أيام ، وكان العمل يستمر طيلة ساعات النهار بتنظيم رائع ، وإشراف من القائد العام، رسول الله (ص). واخذ المسلمون مواضعهم وراء الخندق، وعلى المرتفعات، وجمعت النساء والأطفال في دور قوية التحصين، داخل المدينة. وكان الخندق مفاجأة لقريش ، واخذ المقاتلون يتراشقون بالنبال. وعسكر الرسول (ص)، مع ثلاثة آلاف مقاتل ، وراء الخندق ، وتحمس بعض المشركين، ومنهم : (عكرمة بن ابي جهل)، و (عمرو بن عبد ود) ، فعبروا الخندق على خيولهم ، من منطقة يضيق عرض الخندق فيها ، فقطع المسلمون طريق العبور ، ومنعوا استمراره ، وقتلوا ثلاثة من المشركين ، بينهم (عمرو بن عبد ود) ، الذي قتله (علي بن ابي طالب). وعاد من نجا من فرسان قريش إلى معسكره. وحاول المشركون القيام بهجوم عنيف ، صده المسلمون. ودار القتال طول النهار ، ولم ينجح هجوم المشركين.

اشتد الخوف بالمسلمين ، خاصة عندما نقض بنو قريظة عهدهم مع الرسول (ص)، وقد أرسل النبي (ص) من أصحابه: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ، مع أناس آخرين ، ليتأكدوا من الخبر، وعادوا يؤكدون خيانة يهود بني قريظة لعهودهم . اشتد البلاء على المسلمين ، قرابة شهر ، والحصار قائم ، وارسل اليهود رجلا منهم ، يستطلع الأخبار ، فتسلل إلى منطقة الدور ، حيث يتجمع النساء والأطفال ، ويظهر أنه كان يريد معرفة مواضع الضعف ، ليقوم قومه بهجوم مباغت على بيوت المسلمين . لكن امراة مسلمة . هي (صفية بنت عبدالمطلب) ،

شاهدنه، وعرفت أغراضه، فأصابته بضربة عمود، فقتلته، وقضت بذلك مابينه مع قومه. وصل الضيق بالمسلمين إلى الحد الذي لايحتمل، حتى أن الرسول (ص) حاول تخفيف الشدة، بمفاوضة زعماء غطفان، على أن يكون لهم ثلث ثمار المدينة، مقابل انسحابهم. لكن زعماء الأنصار اقترحوا على رسول الله (ص) الا يفعل، فنزل عند رأيهم، واستمرت المناوشات، وزاد الشتاء، ببرده وعواصفه، الحالة سوءا وعذاباً. وفي ذلك الوقت عرض (نعيم بن مسعود) على الرسول (ص) أن يؤدي خدمة للمسلمين، وكان قد أعلن إسلامه، دون أن يدري بذلك أحد، فقال له الرسول (ص): «إنما أنت رجل واحد، فخذ ما استطعت فإن الحرب خدعة». ونجح (نعيم) في إلقاء الخلاف بين بني قريظة وقريش، فأوهم يهود قريظة أن قريشا سترحل عن قريب، تاركة الفرصة لمحمد لينتقم منهم، فليأخذوا رهائن من قريش، لضمان بقائهم إلى جانبهم. ثم أوهم قريشا أن يهود قريظة قد اتفقوا مع محمد (ص)، وصالحوه على أن يقدموا له عددا من زعماء قريش ليقتلهم، عربونا لهذه الصداقة والمصالحة. وقد ارتاب كل من الطرفين في الآخر، وضعفت المعنويات، واشتدت الرياح، واقتلعت الخيام، فرحلت قريش، وتفرقت جموع الأحزاب، دون أن يصيبوا من المسلمين ما يأملون، وكانت خسارة المسلمين ستة شهداء، وخسارة المشركين ثلاثة قتلى.

لعبت عوامل عدة في إخفاق المشركين، ونجاة المدينة، في هذه الفترة، التي كانت تهدد الإسلام في عقر داره، ولو نجحت لاستأصلت

شأفة أبنائه ، واهم عوامل نصر المسلمين :

أولا : قيادة الرسول (ص) الموحدة ، وفقدان مثل هذه القيادة في معسكر الأحزاب ، حتى كان لكل مجموعة قبلية قائد منها ، يطلب البطولة لنفسه ، وقبيلته ، فحسب .

ثانيا : الخندق والدور الكبير الذي قام به للحيلولة دون تدفق الأعداء إلى داخل المدينة.

ثالثاً : قسوة الطبيعية ، ببردها وعواصفها التي ساعدت ، على إضعاف معنويات المشركين .

رابعا : فقدان الثقة بين الأحزاب ، واختلافها في أهدافها ومقاصدها .

خامسا : صبر المسلمين وثباتهم ، وتحملهم الأذى والعذاب ، طول مدة الحصار .

غزوة بنى قريظة

كان لابد من تصفية الحساب مع بني قريظة ، الذين خانوا عهدهم مع المسلمين ، وأرادوا الغدر بهم ، في اشد اوقات محنتهم، في اثناء حصار الأحزاب لهم . وكان بنو قريظة بذلك يشكلون خطرا داخليا، يهدد كيان الإسلام في المدينة ، ولهذا ما أن رحلت جموع الأحزاب إلا وعاد الرسول (ص) إلى المدينة يدعو المسلمين ، في نفس اليوم ، لغزو بني قريظة ،وقد بعد حلفاؤهم المشركون . وخرج

للرسول (ص)، على راس ثلاثة آلاف مقاتل، وقبل حلول ظلام ذلك اليوم، كانت حشود المسلمين تحاصر بني قريظة في حصونهم على الرغم من تعب المسلمين الحصار وبرودة الجو، واستمر الحصار خمسا وعشرين ليلة جرى خلالها تراشق بالنبال والحجارة، ولما اشتد الحصار باليهود، قبلوا الاستسلام، على ان يحكم في امرهم سيد الأوس، (سعد بن معاذ)، وقبل للرسول (ص) حكم سعد.

أخذ (سعد) المواثيق من الطرفين، على ان ينزلوا عند حكمه. ونزل بنو قريظة، ووضعوا سلاحهم، فكان حكم سعد ان يقتل الرجال، وأن يغنم المسلمون جميع ما يملك اليهود، وأن تسبى النساء والأطفال. وكان سعد يقدر أنه لو نجحت مؤامرة بني قريظة، لكانت نهاية المسلمين هي نفس هذه النهاية، فحكم عليهم بمثل ما كانوا سيفعلون بالمسلمين. وقتل رجال بني قريظة، إلا اربعة منهم، اعتنقوا الإسلام. وقتلت امرأة واحدة، لجريمة ارتكبتها. وذلك أنها ألقت برحى على أحد المسلمين، وهو (خلاد بن سويد)، فقتل، فكان قتلها به.

غزوة بني المصطلق، سنة ٦ هـ

وكان لهذه الغزوة أهمية خاصة، لما رافقها من بعض الحوادث ذات الأثر في الجماعة الإسلامية. والدافع لهذه الغزوة اجتماع بني المصطلق، وهم من خزاعة، على حرب المسلمين، بزعامة (الحارث بن أبي ضرار). وقد خرج الرسول (ص)، قبل أن

يقوم هؤلاء بالهجوم، فهزمهم، عنـد ماء يسـمى المريسيع. وغنم المسلمون كثيرا من إبلهم، وأسروا بعض نسـائهم، وكان في عداد القتلى سيد القوم، الحارث.

وحدث خلاف في أثناء عودة المسلمين، بين مهاجر وأنصاري، وصاح كل منهما بأصحابه، وكادت تقـع الفتنة، التي استغلها رأس المنافقين، (عبدالله بن أبى)، وتكلم بكلام يمدد فيه بالمهاجرين. وقال: «لقـد كاثرنا المهاجرون في ديارنا». وأكثر من الهجوم بكلامه عليهم. ووصـل ذلك إلى رسول الله (ص)، وهـاج له عمر، حتى اقترح أن يقتل، وأبى ذلك محمد (ص)، وجاء عبدالله إلى الرسـول ينفي ما نسب إليه، وقضى الرسول (ص) على الفتنة في مهدها، وحذر المسلمين من دعوى الجاهلية، وقـد نزلت في هؤلاء المنافقين الآية: «يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ولله العزة ولرسـوله وللمؤمنين. ولـكن المنـافقين لايعلمون». وقد ظن البعض أن النبي سيقتل (عبدالله بن أبي)، وأسرع ابنه (عبـدالله بن عبدالله بن أبى). وكان حسن الإسلام إلى الرسول، يقف موقفاً نادراً في تاريخ الإسلام، ويقول: «يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل أبى، عبدالله بن أبى، فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه. فوالله، لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي، يمشـي بين الناس، فأقتله، فأقتل رجـلا مؤمناً

بكافر ، فأدخل النار » . فهو في موقفه هذا ، لا يرجو رسـول الله أن يمتنع عن تنفيذ مايأمره الله به ، أو أن يعطل حداً من حدود الإسلام ، وإنما يخشى من نفسه الثأر مما يتنافى وما في قلبه من الإيمان ، فكان كل رجائه أن ينفذ بيده أمر الرسول (ص) بأبيه. وكان جواب الرسول (ص) لعبدالله بن عبدالله : « انا لانقتله ، بل نترفق به ، ونحسن صحبته ، مابقي معنا » .

ومن الحوادث التي تبعت غزوة بني المصطلق ، ما كان من حديث الإفك، واتهام بعض دعاة السوء من المنافقين عائشة ، أم المؤمنين، بسبب تأخرها عن القافلة ، وكانت قد صاحبت رسول الله في هذه الغزوة ، وسار الناس ، وهم يعتقدون أن عائشـة في هودجها ، بينما هي بعيـدة عنهم في بعض حاجتها ، وبقيت عائشـة في مكانها ، منتظرة عودة الباحثين عنها . ومر بها أحد المتخلفين من الركب ، وهو (صفوان بن المعطل السلمي) ، فعرفها ، وأناخ لها بعيره ، وابتعد، فركبت، وساق البعير ، مسرعاً ، ليلقى القوم ، ودخـل المدينـة ، في وضح النهار . ونزلت عائشة إلى بيتها . ولم يكن هناك في الأمر ما يريب ، ومضت ايام دون سماع اي خبر حول الموضوع ، إلى أن تناولته ألسنة بعض المنافقين ولعبت النسـاء ،ومنهن أخت لزينب بنت جحش (واسمهـا حمنة) ، فارادت هذه أن تمس عائشة بما يفسد عليها قلب الرسول (ص) ، غيرة منها ، لصالح أختها، زينب، زوج الرسول . وقد صدق بعض المسلمين حديث الإفك، وأصاب الرسول (ص) من ذلك حيرة ، وأذى، إلى أن نزلت آيات القرآن الكـريم ، تبرىء عائشـة مما اتهمها به المرجفون

المنافقون ، وكانت تبرئة عائشة في سورة النور ، ومنها قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لاتحسبوه شر لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » .

ومما أعقب غزوة بني المصطلق كذلك، زواج رسول الله (ص) من إحدى سبايا هذه الغزوة ، وهي (جويرية بنت الحارث)، سيد القوم، وقد طلبت من الرسول مالا ، يساعدها في فك أسرها ، فقدمه لها . ثم عرض عليها الزواج ، ليتألف قلبها ، وقد مات أبوها بسيف المسلمين ، وخشية ان تجتمع حولها فلول قومها ، فينفتح بذلك باب جديد للشر والقتال ، فقبلت جويرية ، وتزوجت برسول الله (ص) . فأعتق المسلمون ما بيدهم من أهل بيتها ، إكراماً لها ، بعد أن أصبحت زوجة لرسولهم الكريم .

صلح الحديبية (سنة ٦ هـ)

خرج الرسول (ص) ، في السنة السادسة للهجرة ، يريد قضاء العمرة في مكة (زيارة الكعبة ، والطواف ، والسعي ، في غير موسم الحج) ، ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه . ويظهر ان الرسول (ص) أراد بعمله هذا أن يظهر لقريش خاصة ، وللعرب عامة ، أنه مازال يقدس الكعبة ، ويحج إليها أتباع دينه ، فما تزال مكانتها في الإسلام سامية مقدسة .

obeikandl.com

خرج الرسول ، في شهر ذي القعدة ، وهو من الأشهر الحرم ، ليعلم الناس أنه خرج زائراً ، معظما للكعبة ، ولم يكن غازياً ، ولا فاتحاً. وأراد بخروجه ، وعمرته هذه ، أن يطلع أهل مكة على موقف المسلمين من كعبتهم ، وتعظيم الإسلام لها ، كما يريهم إخوانهم المهاجرين ، وإشراقة الإيمان على وجوههم ، لعلهم ينسون بعض أحقادهم ، وتتغلب في نفوسهم عواطف القربى ، وصلات الرحم . وإذا قاتلت قريش فسوف تسيء إلى سمعتها ، وتخسر احترام العرب لها ، لقتالها قوماً جاءوا للعمرة ، في الشهر الحرام ، في البلد الحرام . ولم يكن مع المسلمين إلا سيوفهم ، في أغمادها ، واتجهوا محرمين (لابسين لباس الإحرام) على بعد يسير من المدينة ، وقد سبقهم من يستطلع لهم أخبار قريش ، وجاء الخبر بأن قريشاً ، وبعض حلفائها ، أجمعوا على صد المسلمين ، ومنعهم من دخول مكة ، ولو أدى الأمر للقتال .

خشيت قريش أن تكون خدعة من المسلمين ، يريدون بها احتلال مكة ، وعندما علمت أن محمداً جاء للعمرة فقط ، رفضت ، لئلا يقال بين العرب إن محمداً دخل مكة عنوة ، ولهذا عزمت قريش على منع محمد وأصحابه من دخول مكة ، ولو كان الأمر عمرة حقاً . وتهيأت قوة من الفرسان والمشاة ، لتحقيق أهداف قريش ، وهاجم بعض المتحمسين من شباب المشركين معسكر المسلمين ، قرب مكة ، فأسروا ، ولكن الرسول أطلق سراحهم ، إثباتاً لنواياه السلمية ، في زيارته لمكة .

وكان المسلمون قد عسكروا، عند الحديبية، (على بعد ثلاثة أميال من شمالي (مكة)، وجاءت عيون قريش، ورأت مواضعهم، وعادت تخبر القوم أن المسلمين لا يعتزمون قتالا . وجاء إلى الرسول من حادثه، باسم قريش، وعاد معتقداً في حسن نية محمد (ص) وأصحابه في عمرتهم هذه . وأرسل الرسول (ص) رجلا، يبلغ قريشاً رغبة المسلمين في العمرة، فعقر المشركون ناقته، وكادوا يقتلونه . ثم أرسل محمد (ص) عثمان بن عفان، وفاوض القوم، فأخبروه أنهم أقسموا ألا يدخل محمد عليهم مكة عنوة هذا العام، وطال غياب عثمان، وشاع الخبر بين المسلمين بأنه قتل، فعزموا، إن صح الخبر، ان ينازلوا القوم وبايعوا رسولهم على ذلك، تحت شجرة هناك، وسميت هذه البيعة (بيعة الرضوان) . وهي البيعة، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، في قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين، إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة، يأخذونها، وكان الله عزيزاً حكيما » . ولم يلبث عثمان أن عاد، وأخبر محمداً أن قريشاً قد اقتنعت بغايات المسلمين السلمية، ومع ذلك فقد أقسمت ألا تكون لهم عمرة هذا العام .

واخيراً أرسل مشركو قريش (سهيل بن عمرو)، وتمت، بينه وبين الرسول (ص)، معاهدة سميت، (صلح الحديبية)، وتنص على ما يأتي :

١ــ أن تقف الحرب بين الطرفين عشر سنين .

٢ـ أن يرد للرسول من يأتيه من قريش ، دون إذن وليه .
٣ـ ألا تلزم قريش برد من يأتيها من عند محمد .

٤ـ من أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدها فله ، ذلك ، ومن أراد أن يدخل في عقد محمد وعهده ، دخل فيه .

٥ـ أن يعود محمد وأصحابه هذا العام ، دون عمرة ، وأن يدخل مكة في عام مقبل ، بعد أن تخرج منها قريش ، ويسمح له عندئذ بالبقاء فيها ثلاثة أيام ، ولا يحمل خلالها المسلمون إلا السيوف في أغمادها .

أصاب المسلمين غم شديد وحزن عميق من عقد هـذا الصلح ، الذي رأو فيه ضعفاً واستسلاماً لقريش ، ورضوخاً لكبريائها ، وتحقيقاً لأهدافها ، وظهر ذلك على وجوه المسلمين ، حتى أنهم تأخروا عن تنفيذ أوامر الرسول (ص) ، حين أمرهم أن ينحروا الأضحيات ، التي جلبوها للنحر ، ويحلقوا رؤوسهم ، ولم يفعلوا ذلك إلا بعد أن رأوا رسول الله (ص) قد نحر أضحيته ، وحلق رأسه .

لقد كان موقف (عمر بن الخطاب) يوضح نفسية المسلمين ، في تلك الفترة ، حين وقف يقول لأبي بكر ، وهو ينظـر في شروط قريش : « فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ » . فقد رأى ، كما رأى معظم المسلمين ، ما وراء ذلك الصلح . وكان الحكم الفصل آيات ، أوحى بها إلى رسول الله الكريم ، فتلاها على أصحابه ، فزال الشك والريبة من قلوبهم ، حين سمعوا قول الله تعالى . « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيما .

لقد ترك صلح الحديبية نتائج هامة بالنسبة للمسلمين، لم يكن ليلحظها، في أثناء عقده، إلا بعيد النظر ثاقب الفكر، ومن اهم هذه النتائج:

١ - اعتراف قريش بالمسلمين طرفاً مساويا لهم، واعتبارهم نداً لها، وهذا الاعتراف بكيانهم هو اعتراف يمنحهم مركزا وقوة بين العرب .

٢ - منحت هدنة السنوات للعشر المجال الواسع أمام محمد(ص)، ليتفرغ خلالها لنشر الإسلام في مناطق جديدة، ولينظم أموره تنظيما كان يشغله عنه عداء قريش وقتالها .

٣ - تفرغ الرسول (ص) لمحالفة بعض القبائل، التي سمح الصلح بأن تحالف من تشاء من الطرفين .

٤ - كان شرط إعادة المسلمين الجدد إلى مكة سببا في إحداثهم القلاقل والمتاعب لقوافل قريش بين مكة والمدينة ، ولم يكن محمد مسئولا عنهم ، لإنه ردهم إلى ذويهم ، حتى جاءته قريش، ترجوه قبولهم، متنازلة عن ذلك الشرط في صلح الحديبية .

٥ - تفرغ الرسول (ص) لتصفية حسابه مع اليهود في الحجاز ، وكانوا مازالون يدسون ويتآمرون .

غزوة خيبر (سنة ٧ هـ)

مابرح اليهود يكيدون للإسلام ونبيه ، كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، وعلى الرغم مما أصابهم على يد المسلمين من هزيمة وقتل وتشريد، فإنهم استمروا

في تأليب العرب ضد محمد وصحبه، ووجد الرسول، في صلحه مع قريش، فرصة لتطهير الحجاز من الجيوب اليهودية، المتمركزة في بعض المعاقل، شمالي المدينة، وأقواها في خيبر، حيث كان يهودها يبيتون مؤامرة جديدة للزحف، للقضاء على المسلمين. وتوجه الرسول، مع ألف وأربعمائة مقاتل، لمقاتلة يهود خيبر، الذين كانوا لا يقلون عن هذا العدد، وتمنعهم حصونهم، ويقودهم (سلام بن مشكم). وأرسل الرسول قوة صغيرة توهم قبيلة غطفان، حلفاء اليهود، بأنها ستهاجم ديارهم، فأسرع بنو غطفان إلى ديارهم، لحمايتها، في الوقت، الذي كان محمد وصحبه يطبقون فيه على معاقل اليهود، في خيبر، وبذلك ابعدت مساعدة غطفان ليهود خيبر، في هذا الصراع الحاسم مع بقايا اليهود.

ضرب المسلمون الحصار ليلا على خيبر، وبدأ القتال، مع طلوع الفجر، قتالا مريرا، استمات فيه اليهود، لأنه في نظرهم قتال حياة أو موت. وكذلك استمات فيه المسلمون، وهم على يقين بأنه لا راحة لهم ولا هدوء، مادام اليهود يجاورونهم، ويكيدون، ويتآمرون.

قتل قائد اليهود، (سلام بن مشكم)، وتولى قيادتهم (الحارث بن أبي زينب)، وجرح من المسلمين في اليوم الأول، خمسون مقاتلا، لضراوة القتال، وركز المسلمون الهجوم على حصن ناعم، حيث كان اليهود قد جعلوا منه مستودعاً لذخائرهم، واستمر القتال حوله ثلاثة أيام، انتهت بقتل قائد اليهود، الحارث، واستسلام الحصن. فأضعف سقوطه من معنويات اليهود، وشدد المسلمون على حصن القموص، فاستسلم أيضاً، كما سقط

حصن الصعب بن معاذ ، وكان مستودعاً لأغذية اليهود ، وقد حل سقوطه مشكلة حاجة المسلمين للمؤونة . واستمر سقوط الحصون ، على الرغم من شدة دفاع اليهود، واستماتتهم أمامها ، ولم يبق منهـا إلا حصـن الوطيـح ، وحصـن السـلالم ، فاجتمعت عليهـما قوة المسـلمين ، وأدرك اليهود هزيمتهم ، ومصـيرهم المحتـوم، فعرضوا الصلح على الرسول ، فقبله ، وأبقاهم على أرضهـم ، يزرعونها. ويقدمون نصف المحصول، ويأخذون النصف لأنفسهم،مقابل عملهم فيها ، وقد أراد الرسول (ص) أن يستفيد من خبرتهم الزراعية ، وعاملهم بعد استسلامهم معاملة طيبة ،حتى أنهم طالبوا برد بعض صحائف من التوراة ، وقعت في أيدي المسلمين ، بين الغنائم ، فأمر الرسول بردها إليهم . وعرض الرسول (ص) على يهود فدك الاستسلام ، على شروط خيبر ، فقبلوا ، دون حرب . كما صالح يهود وادي القرى ، على نفس هذه الشروط ، بعد مقاومة بسيطة . واستسلم على نفس هذه الشروط ايضا يهود تيماء ، بدون قتال .

وهكذا تم القضاء على كيان اليهود، في جزيرة العرب ، وأصبحوا يعملون في قراهم ، بعيدين عن جو التآمر والكيد ، بعد أن غدوا تحت إشراف المسلمين ومراقبتهم ، وكان يأتيهم عبدالله بن رواحة ، في كل عام ، يقدر عليهم محصولهم ، لأخذ نصفه لدولة الإسلام، وحاولوا أن يرشوه ، ليخفف عنهم مقدار ما عليهم ، فلم يفلحوا في ذلك .

وبقي يهود خيبر على أرضهم حتى خلافة عمر بن الخطاب ، فلما رأى منهم الغدر ، حينما جرحوا (عبدالله بن عمر) قضى عليهم، وقيل إنه أراد أن ينفذ قولا ، سمعه من الرسول (ص) ، وهو « لا يجتمعن في جـزيرة العرب دينان» ، وامر بإجلائهم نهائياً من الحجاز .

الفصل السـادس
تعميم نشر الدعوة الإسلامية

إن الدعوة ، التي حمل محمد (ص) رسالتها ، وأمانة تبليغها ، لم تكـن قاصرة على العرب وحدهم ، وإنما كانت عامة ، للناس أجمعين. والقرآن الكريم يخاطب بآياته الناس ، دون تفريق ، أو تمييز : « هـذا بيان للناس وهـدى وموعظـة للمتقين » . « يأ ايها الناس ، اتقوا ربكم ، الذي خلقكم من نفس واحدة» . «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيما » . « إن هو إلا ذكر للعـالمين » . « تبـارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا» . «وما ارسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن اكثر الناس لايعلمون». « قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا » .

لهذا أفاد الرسول (ص) من الفرصة التي منحته إياها الهدنة مع قريش ، وقام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ملوك الدول ، المجاورة لجزيرة